

عمرو العادلي  
مجموعة قصصية



# 9

عمرو العادلي

مجموعة قصصية

إلى ندى

كل ما فيك يُشبهني. حتى ما أحاولُ حجبهِ عن الأنظار.

وبعض عمرک

ما لم تعشه

وما لم تمته

وما لم تقله

وما لا يُقال

محمد الفیتوری

العنكبوت وأحلام جدي

انتظرتُ أن تُجيب أُمي عن سؤالي، لكنها لم تتكلم، ظلت تتأملني لفترة طويلة وهي سارحة، فسألتها من جديد:  
«أُمي، ما هو العنكبوت؟».

لم ترد للمرة الثانية، ويناديني جدي، يعطيني هدية نجاحي متأخرة كثيراً عن ميعادها، يمد لي يده يَكرِّم أَرْضِيَّة مُضِيئة لها قاعدة حديدية كالرغيف، تسبق ابتسامته كلماته:  
«هديتك كوكب».

قال ثم جلس في ركنه القصي كما تعودته دائماً، أشار لي بسبابته، ثم جاهد كي يُخرج صوته من حَلَقه:  
«يا عُمَر. لِمَ لم تَكُ من الأطباء؟».  
أرتبكُ وفي يدي هديتي، أضع كُرِّي الأرضية فوق مكتبي الصغير، أقترُبُ منه وأسأله:  
«لماذا يا جدي؟».

يجيبني وهو يخفض من صوته كي لا يصل لأُمي القريبة:  
«لتصف لي دواءً يعالج الزمن».  
وأذكر سؤاله لي بالأمس:  
«يا عُمَر. لِمَ لم تَكُ من المدرسين؟».  
وقتئذ، سألتُه سؤالاً فوق سؤاله:  
«لماذا يا جدي؟».

أجاب وهو يتكلم في بطانية كبيرة جداً مقارنة بحجمه:  
«لثبُت درس الحساب في عقل ابن عمك إبراهيم».

لا أودُّ أن يسألني أحد، كنتُ أحبُّ أنا طرح الأسئلة. انصرفْتُ من أمام جدي وتذكّرتُ أن أمي لم تجب عن سؤالي لها منذ قليل، فكانت فرصة لأعيده على مسامعها مرة أخرى:

«أمي، ما هو العنكبوت؟».

تنشغل عني بأمور البيت، ويناديني جدي بعد أن يسعل مرتين ويطرق إصبعًا من قدمه، أجلسُ بالقرب منه، يشتدُّ صوته:

«يا عُمر، لِمَ لم تكُ من المحامين؟».

«المحامون! لماذا يا جدي؟».

«لتسترد لنا الأرض دون مصاريق».

وعندما لم أجد ردًّا ألقي بكتبي فوق أكوام الذرة الجافة، أركن كراريسي بعيدًا عنه كي لا يخترع لي سؤالًا جديدًا، ثم أذهب لألعب خارج الدار. بعد أن تغيب الشمس اقترب جدًّا من بابنا، ألصق بالجدران الدافئة، أخاف أن يخرج لي العنكبوت من الظلمات عند نهاية الشارع، فأدخل، ولا أجد جديدًا، جدي يجلس كما هو، وأمي تضع ما تبقى من وجبة الغداء لدجاجات القن، تلتفت فتجديني واقفًا خلفها:

«ما هو العنكبوت؟».

لا أدري هل سألتها أم سألت نفسي، لا فرق، فقد اعتدتُ عدم ردها، انتهيتُ لجدي الذي كان يدورُ كرتي الأرضية بطرف إصبعه، ثم يسند كفه عليها ليوقفها عن الدوران ويقول:

«يا عُمر، الإيمان القوي يجعلك ترى الكون كهذه، صغيرًا جدًّا، وتستطيع التحكم في أفلاكه».

ثم أخذ يلف الكرة من جديد حتى كلت كفه وغامت عينه،

رَقَعَ رَأْسَهُ عَالِيًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ:

«يَا عُمَرُ. لِمَ لَمْ تَكُ قَائِدَ طَائِرَةٍ؟».

وَأَسْأَلَهُ كَمَا اعْتَدْتُ:

«لِمَذَا يَا جَدِي. هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَرْكَبَ الطَّيَّارَةَ؟».

يَرْفَعُ يَدَهُ عَنِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ الزَّرْقَاءِ:

«لَا. أُرِيدُ أَنْ أَطِيرَ مِثْلَهَا. بَجَنَاحَيْنِ. وَأَصْعَدُ إِلَى أَعْلَى. فَأَعْلَى، فَأَعْلَى».

قَالَ، ثُمَّ تَرَكَ عَصَاهُ تَقَعُ، ظِلٌّ يَرْقُرُفُ بِيَدَيْهِ وَلَا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ.

بَعْدَ مَدَّةٍ لَا أَعْلَمُهَا بِعَدَدِ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ؛ أَرَى جَدِي يَتَوَكَّأُ عَلَى عِكَازِهِ وَيَقْتَرِبُ مِنِّي، يَضَعُ كَفَّهُ السُّودَّاءَ الْوَاهِنَةَ فَوْقَ كَتِفِي، وَيَقُولُ كَأَنَّهُ يَنَادِينِي:

«يَا عُمَرُ».

ثُمَّ يَثْبُتُ نَظْرُهُ عَلَيَّ بِشَكْلِ يُخِيفُنِي:

«يَا سَارِيَّةَ الْجَبَلِ».

وَأَنْظُرُ خَلْقِي فَلَا أَجِدُ أَحَدًا يَمْسَحُ بِأَصَابِعِهِ الْمُرْتَعِشَةَ عَلَى شَعْرِ رَأْسِي وَيَقُولُ:

«لِمَ لَمْ تَكُ مِنَ النَّبِيِّينَ؟».

تَسْلَقْتُ عَيْنِي عِبَاءَهُ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى خَرِيطَةِ مَلَامَحِهِ الْتَائِهَةِ، وَرَأَيْتُ عَيْنَهُ الْغَائِمَةَ تَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ:

«النَّبِيُّونَ! لِمَذَا يَا جَدِي؟».

وَقَعَتْ يَدُهُ مِنْ فَوْقِ كَتِفِي وَانْصَرَفَ لِحَالِهِ، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُعْطِينِي ظَهْرَهُ:

«لَأَكُونَ مِنْ أَتْبَاعِكَ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ».



يحمل فروة الصلاة ويدخل.

تتابعه عين أمي، وكما اعتادت الصمت دائماً، انصرفْتُ ولم ترد عليه.

في تلك الليلة رأيته يدخل عليّ في الظلام، من شبّاك غرفتي الصغير، العنكبوت، كبير جدّاً، وله هيئة كائنات الأحلام، أراه ولا أراه، أقبض عليه بكياني لا بيدي، لا أستطيع لمسه، يُحرك أذرعاً كثيرة وأرجلاً. نسيْتُ أن أقول شيئاً ربما تصبح له قيمة فيما بعد، كان الشبّاك مُغلّقاً.

استيقظتُ في الصباح، ليست لديّ رغبة في أن أسأل أمي عن العنكبوت، فقد رأيته واضحاً وأنا نائم، لكنني توقعت أن يسألني جدي أسئلته الغريبة، لذلك، ابتعدتُ عن الركن الذي يجلس فيه، اقتربتُ بعد الظهر من منامته فلم أجده، كانت لديّ رغبة في أن أقول لها ما حدث، ولم أتردد:

«أمي. لقد رأيْتُ العنكبوت».

لم ترد، وتذكرتُ أنني لم أسمع الصوت الذي يطرح الأسئلة، فاقتربتُ منها جداً، خفت، لأول مرة أخاف من إجابتها:

«هل ذهب جدي للصلاة؟».

«جداً؟!».

قالتها ثم انصرفت ولم ترد عليّ.

الحافة والمُسَدَّس

كل مساء يتكرر الحدث نفسه، يمسك الزوج مسدسًا ويصوبه تجاه رأسه، يُدجّل سباته في دائرة الزناد ولا يضغط، لا تستوعب زوجته ماذا يفعل ذلك كل يوم حتى صار طقسًا معتادًا؟ تستمر المغامرة نصف ساعة من التوتر والقلق، يمسح بعينه البراويز المعنقة فوق الجدران، يمر عليها مرور الكرام، ثم يتوقف أمام أحد البراويز، يتأمله طويلًا قبل أن يصوب فوهة مسدسه إلى رأسه، يُغمض عينيه ويرمّ شفتيه، ثم لا شيء بعد ذلك.

الموسيقى تنبعث من الراديو، الإيقاع هادئ، والليل يخلو من النجوم، وهما ثابتان على الحال نفسها، في الصباح يمسك بالجريدة، يقلب فيها قليلًا ثم يلقيها بطول ذراعه، تسمع زوجته صوت خرخشة الورق، فتخرج من المطبخ، كل مرة عندما تسمعه تخرج، تمسك كوب الشاي، تضعه أمامه في صمت وترفع «نجان القهوة الفارع».

المرة الأولى التي حاول فيها وصع حد لحياته كانت منذ أيام بعيدة، صرخت زوجته وتجمّع الجيران من مختلف الأدوار، في المرة الثانية صرخت أيضًا، لكن لم يتجمّع الجيران، أما في الثالثة فاكتفت بأن تضع كفها فوق شفتيها وتسحب شهيقًا عميقًا وقلقًا، كل هذه المحاولات لم تجعلها مطمئنة بأن زوجها لن يتهور في لحظة ما، ويضغط على نصف الدائرة القاتلة.

لم ترصّ الزوجة أن يقتل زوجها نفسه بهذه الطريقة المتبذلة، التي تُنثر فيها الدماء في كل مكان، وتتطاير أجزاء من مخه تحت قدميه، كانت تقف على حافة الشباك وتهدهده هي الأخرى بالانتحار إن لم يبعد المسدس عن رأسه، فيبعده بالفعل، وأحيانًا

يضعه على المنضدة، يجري باتجاه زوجته النحيلة، يحملها ليبعدها عن الخطر، يرفعها بين ذراعيه ويستقران فوق كنبه الأتريه، ثم يُكِم شرب الشاي في هدوء.

من كثرة تهديده لها بالانتحار تعودت ذلك، تتميز المرات عن بعضها فقط في التفاصيل، ففي نوبة انتحار الأمس، كانت الزوجة تمسك بوردة في يدها وهي تصعد إلى سور الشباك، وعندما وحّه زوجها المسدس في وضع إطلاق النار؛ نبهته أنه سيتحرر بطريقة خاطئة، فيمكن أن تخرج الطلقة من صدغه الأيسر وتخرق صدغه الأيمن دون أن يموت، ولن يحني إلا ثقبين ونزف لتر من الدماء وعاهة لا تنفع معها عمليات تجميل، في تلك الحالة لن يمكنه التخلص من حياته، لكنه سيتخلص من وسامته فقط وبالفعل، يعدل الزوج من وضعية المسدس ويسنده عند أعلى رأسه، فوق أذنه بقبيل، لكن الزناد لم يتحرك من مكانه، ولا مرة واحدة.

في الصباح التالي قال لها:

«أشعر وكأنني مت».

فترد عليه بعد صمت طويل:

«وأنا أيضًا. تحديدًا منذ ذلك اليوم».

يمسك بالمسدس ويقلبه بين كفيه، ينظر إليه لا كآلة يمكنه أن تنهي حياة شخص؛ لكن كقطعة حديد صنعها الإنسان ليُشعر بالموت في كل لحظة، دون أن يموت بالفعل.

كانت زوجته مغلصة لعائلته بفصل العشرة وانقطاعها من شجرة، ظلت تقاوم معه ما يتعرض له، لم تياس إلا في هذه الأيام، أصبح روجها يأتي تصرفات لا تُطاق، فقد حاول منذ أسابيع أن يقطع

شرايينه وفشل، وفكر منذ أيام في تناول سُم وخائنه شجاعته،  
فصار المسدس هو البديل الصعب، لا يفارق يده كل صباح.

ملئ زوجته من هذه الروتينية، فكَّرت أن يستبدل الوسيلة،  
تمسك هي بالمسدس ويقف هو على حافة الشباك، جرَّب مرة  
واحدة، لكنه لم يقتنع بالطريقة الجديدة، لم تعجبه المقايضة، فعاد  
كما كان لوسيلته القديمة التي اطمأن لها، أصبح يسمع كثيرا أثناء  
نومه صوت إطلاق رصاصة، ويرى في خياله شعص يترجح، حاول أن  
يبعد هذه الصورة مرارًا، لم يستطع

في الليلة التالية نام وهو ممسك بآلته الحديدية القاتلة، وزوجته  
منكمشة في حضنه، وفي لحظة كائنة بعد الرمز نفسه، هُناك، عند  
انقبوب السود، سَمِع صوت طلقة، حالة أشبه بسرين البنج في  
العروق، سَمِع لصوت حينًا، استبعد أن تكون الطلقة قد أصابته  
فهو لا يزال يستطيع السمع، واستبعد أيضا أن تكون الطلقة قد  
أصابته روحته، فهي لا تزال نائمة في حضنه، بل إن إصبعه لم يصعط  
على الزناد من الأساس، المسدس ثقل فقط على يده فسحبها،  
واستقرت الآلة الحديدية فوق المنضدة الصغيرة، نامت يده بحوار  
كوبي الشاي الفارغين.

حاول أن يستيقظ كي ينظر من الشباك يتقصى الصوت الذي دوى  
منذ دقيقة، لكنه لم يستطع الهوض، ولم يجد زوجته في مكانها

عمتي والحمار

لعمتي «سعدية» صور بالأبيض والأسود والبرتقالي الخفيف، كان جدي يعلقها على حدران الطوب الأحمر في نماذج صغيرة بالكاد يمكن رؤيتها.

دخلت ذات مرة دارنا الكبيرة وهي تبكي، مياه المطر تغسل ملابسها الفضفاضة وجرامها الأسود:

«عبده طردني».

ويرد جدي:

«اقعدي».

ينظر في عينيها مباشرة، ثم يأمر جدي أن تُحضر العشاء، وتاكل عمتي «سعدية»، ثم تحكي لجدي:

«طردي الحبان والدنيا برد»

ويقول جدي.

«الصبح رباح».

يصب لها الشاي الذي جاءت به جدي، دائم جدي عمله وحدي يصبه في أباريق صغيرة، وهو يختبر سخونة الإبريق بين شفتيه فاجأها بسؤال:

«مر الذي سب الآخر منكما أولاً؟».

«سب؟».

أمسك بعض وغررها في الرماد الناعم الذي يسخن البراد

«آه فأنعصب الصامت لن يصل بك إلى ترك الدار».

نظرت عمتي لجدي ولم ترد، لكنه كان يرقب نظراتها شات، الدم

يصعد إلى وجنتيها ببطء، تقترب منهما حدتي.

«أنت تعرف عنده يا شيخ، غشيم وحمار».

يسحب العصا من الرماد ويقطعها، يرمي نصفها بطول ذراعه، ويشير للإصبع بالنصف المتبقي:

«وأعرف ابنتي أكثر».

في الصباح يرسل عمتي مع جدتي، يقومان بأشغال كثيرة فوق السطح وحول البيت، بعد ساعات قليلة تدخل عمتي مهدودة البدن غائرة النظرة، تدخل ولا تلقي السلام على أحد، تمام على سرير مهممل بطريقة مرتجلة

بعد الظهر يرسلني جدي لعبدّه روج عمتي.

«قل له كلم جدي».

ثم تجذبني اليد الكبيرة قبل أن أتركه وأطير:

«اسمع، لا تدخل بلعه الرسالة من الخارج».

أطير، ثم أسمع اسمي بالصوت العريض نفسه، وألتفت دون أن أعود ثانية:

«نادي عليه مرتين فقط، وإن لم يرد عُد إليّ بسرعة».

وأختفي من أمامه في ملح البصر، لا يشعني إلا الرجل الحمار الذي صرب عمتي وكسر لها الخلق، لن أضربه، فجدي لم يأمرني بذلك، يلتهب وجهي من البرد والغضب، أقف تحت المطر وأطرق الباب، لا يفتح عبده، أرى رأسه الكبير يطل من شباك حديدي صغير، وأسمع صوته الخشن المتقطع من الداخل.

«قل لجديك لن آتي».



لم يعلق الشباك في وجهي.

لم يحدثني جدي عن هذا الاحتمال، أن يرد عليّ عبده من الشباك ولا يفتح لي الباب، تَكُونُتْ الكلمات في فمي، ولم أتكلم، انصرفْتُ بعد أن شعرتُ بأني عاريّ تحت الرخات الباردة، ورأسي كقُحَّارة تُسبِت في فرن شديد الحرارة، توقفتُ أمام الدار لا أريد الدخول، كنتُ أحهر الكلمات التي سأقولها لجدي، بسقتها في شكل يُظهر رجولتي أمام روج عمتي الذي رفض أن يفتح الباب لي عندما دخلتُ لم أنطق بكلمة، فقد قابلني صوت جدي على الباب:

«لم يسمع منك؟»

«...»

لم يفتح لك الباب. هه؟».

جلسْتُ بجواره فتبخَّرت كل الكلمات التي رقيتها من رأسي، أخذتُ أفرح ساقِيّ وأحبَّظهما ببطن الكنبَة، كان الصوت المنتظم يغريني بأن أطل على هذه الحال أطول فترة ممكنة، دون كلام.

بعد يومين يأتي روج عمتي ووجهه في الأرض، يجلس مع جدي، يقول له:

«سامعني».

ويرد جدي:

«على ماذا أسمعك يا رجل؟ نحن أهل»

وقبل أن يجلس زوج عمتي على المصطبة يمسكه جدي من يده

«حاسب».

يخلع عباءته الجوخ السوداء ويفرشها له ليجنس عليها، وينحني

رأس زوج عمتي أكثر:

«كفاية إحراج».

ويرد جدي:

«هل بيننا هذا الكلام؟ نحن أهل. والمصطبة ملولة. لا يصح أن  
تجلس في الطين».

ويقول زوج عمتي:

«بعد إذنك»

يمد جدي رأسه للأمام كحمل:

«ها».

يُكمل زوج عمتي جُمْلته:

«عاوز سعادتي».

«لا».

يقول جدي. يعود رأس الحمل إلى وضعه الطبيعي، يرفع روج  
عمتي تَظْهره عن الأرض، وقبل أن يرد يُضيف جدي:

«لن تخرجنا من هنا إلا بعد الغشاء».

وجلسنا جميعاً حول مائدة الطعام.

كنتُ في العاشرة، اقتربت من جدي وقلت:

«بهذه السهولة يأخذها؟ إنه يضحك عليك. عمُتي تقول عنه  
دأبه طويل اللسان وجبان».

يشد جدي على دراعي ويُخَفِّص من صوته:

«اسكت يا ابن الكلب. بدري على ما تفهم»

يقوم روج عمتي ليغسل يده من أثر السمين، وأكرر:

«هذا الرجل يصحك عليك يا جدي، لا تُعطه عمتي. ألم تقل  
نفسها أنها لا يمكنها العيش معه أبداً؟».

ويقول جدي حملة تجمع بين قوة عظيمة وضعف شديد.  
«انظر إلى عمتك بانداح يا مُعقل».

وأُتسل إلى انداخل، فأراها واقفة أمام مرآة مكسورة، تُخرج من  
لحت الإيشارب خُصية شعر، تُؤجها بثلاث يَسس طويلة سوداء،  
وتحك خدّها بورقة دحان حمراء، ترح المكحلة وتُعِص عيها  
عيها ثم تسحبها بعنف من بين جفنيها.

وأعود إلى جدي، وهي يُخرج صهداً، ويعود رأسي يشبه فحارة  
تفحم في فرن، ويسألني:  
«ها. ماذا رأيت؟».

وأقول:

«عمتي قليلة الأدب».

يصحك جدي وهو يدرس كرة صغيرة من المضغة في فمه:

«لماذا يا أبو العُريف؟».

وأتردد قبل أن أقول:

«تضع الأحمر والكحل».

ترداد الضحكة، ويتسع فمه المظلم الغويط:

«دامت تفعله من أجد زوجها فهو الأدب نفسه يا مُعقل».

ويخرج زوج عمتي كديك منتفخ، وحلفه بنصف خطوة تسير  
عمتي كطبة سمينة، تحمل فوق رأسها قفصاً جمعت محتوياته  
لها من الدار، يتلعهما الطلام ويتوهان بين خيوط المطر الغرير

هي وهو

عَمَّ اندمار المدينة كلها، الأبواب واقعة على الركام، ومواسير المياه مضبوغة، المازل المتبقية بلا مياه أو طعام، والحقول بلا زرع أو بهائم، هربت الكلاب واختفت الحشرات تحت الرماد، حتى الهوام، شُهِبَها الغبار الكثيف الذي ظل لأيام طويلة يطير فوق الحمادات، وهبك في البعيد بعض طيور قليلة جدًّا كأنها جاءت لترى ما حدث عن قرب.

اتفاصيل التي ساعدت على الوصول إلى هذه الحال لا تُرى، ولا أُرَى الإنسان واحد على مدد أنشوف، كل ذلك لم يتوقعه شخص، فلا أحد كي يتوقع، وكل ما حدث لم يدونه إنسان، فلا أحد كي يدوّن، وبلك هي لكارثة الحقيقية، ألا يعرف مَنْ يأتون بعد بها حدث شأنا، أو ما يسميه الناس محرراً، تاريخاً

لكن، هبك، عند أحد الأبواب المضبوغة، بالضغط مكان الحلق الخشبي؛ كان رجل وامرأة يقفان، لا يُعرف من أين جاءا، كانت امرأة عد يدها إلى مستوى فم الرجل، وهو يقببها، يرتدين ملابس طبيعية، كأنهما سقطا منذ ثمانية واحدة من كوكب مُعَقَّم وقريب من مركز الأرض، لم يتأثرا بالدمار الذي لحق بالمدينة، بل لم يفكرا فيه، راحت هي ترفع طرف تنورتها وتتخطى الكتل الجامدة من لحدران المهذمة، وهو أيضاً، كان يأخذ بيدها حتى يبدو رقيقاً، عندما سألته عن لوقت نظر إلى معصمه، فلم يجد الساعة، صحت، وبادلتها الضحكة:

«إن الزمر ليس له وجود إلا في أذهاننا».

أصغت إلى كلماته، وردت

«هل يكون حساب الوقت مضحكاً؟»

هرَّ رأسه، فَجَرَّتْ، تبعها وهو يقفر ويتخطى كل ما يقابله من  
الركام المهدم، جرياً حتى هدهما التعب ودائرية الأرض التي لا  
تنتهي، فعادا من جديد إلى الباب المخلوع، وعاصا بالداخل مدة لا  
أحد يعلمها ممن يحسون الزمن بحركة العقارب.

حرجا بعد ذلك وهما أصخم قليلاً، هو بدين وهي منتفخة،  
وخلفهما مودجان بشريان يحبوان، ولد وست، يشبهانها حدًا، أو  
قليلاً، حسب راوية الرؤية ومراج الملامح.

بدأت بقايا الجدران المهدمة في الاختفاء، والغبار الصقته الأمطار  
الحديدة بالأرض القديمة، وحلق الباب رُكْب في مكانه بيد أقوى  
من أيديهما وأكبر، حتى الباب، أصبح له صوت حين يفتح أو  
يُغلق، وعادت حديقة البيت الصغير تُرهَر، والحمارة التي كانت  
متكومة وراكبة فوق بعضها بعضاً، نُسَقَتْ حول الأشجار القصيرة  
وحمتها من الريح، أما ما دور ذلك من أشياء مفتتة مثل المسامير  
ونصف الملابس وريش الطيور الميتة: فقد دُكَّتْ أقدام الوافدين  
الجدد وغاص في باطن الأرض، لم يمت، ولكنه يستريح لعص العصور،  
حتى يأتي دوره في تشكيل معني حديد لا يقدر على استيعابه مَنْ  
طمره.

بعد أن أزهرت الحديقة وانتقل لونها من الرمادي القاتم إلى  
الأخضر الفاتح، غاص الأربعة بالداخل، ثم خرجوا سبعة، الفتاة  
التي قبَّل الشاب يدها عند الباب المخلوع أصبحت عجوزاً تدروها  
الرياح، تمسك بعضها معقوفة لها رأس أسد عند المقبض وكعب  
حديدي يدق الأرض، أما الشاب الذي قُتِلَ يدها فلم يخرج معها  
وهناك في الحلفية شابان يخرجان، من خلفهما يحبو أربعة أطفال

يلعبون في الحديقة ويتساقون الأشجار القصيرة

أحد الصبية يمسك بالعص التي لها رأس أسد وكعب حديدي،  
يحذيه من طفل آخر أصغر منه، يقول له بأنه سيحتفظ به  
كذكرى مهمة من جدته التي لم يرها.

يحتفي كل أثر للدمار القديم في أرجاء المدينة؛ يعمرّون الحبال  
والصحراء لتصبح مروجًا، وبعد أن يطمئن ساكنوها ويتهجوأ تأتيم  
من حديد أناء الحرب، فالمرج الحصراء ونساتين الفاكية التي  
يديهم لا توجد في مكان آخر، وأصحاب الأماكن الأخرى يطمعون،  
فهم لا يزرعون أو يحصدون، بل يصنعون أدوات الحرب بمهارة،  
ولهم قدرة فائقة على المراوغات الكلامية

ودقت الطبول على أبواب المدينة ذات حجر.

أغاروا عليهم ودمروا كل ما قابلهم من خضار، زحف زبد البحر  
الأبيض على الشواطئ، استعالت موجاته البيضاء لأعمدة من ملح  
وقعت على الصخور فتفتت، الزخرف الوحيد الذي بقي كان رخوي  
الطبيعة، انحناءات اسحر ولون السماء وصفرة الشمس، أم الأرض  
فقد تكومت بيوتها تلالاً من حجارة وحدود أشجار وخرق بالية،  
وستحالت مروجها إلى عصف مأكول، وخليتها تآثرت، المكاحل  
اندثرت بين الأتربة، والمرايا تهشمت ورجعت لثنتها الأول، حبيبات  
من رمال.

عادت المدينة تغوص في صمتها البعيد مرة أخرى، لكن عند  
أحد البيوت المهذمة كان هناك باب واقع، الحلق مثل على حاسب  
واحد كلسان ذبيحة. عند فتحة الباب الخالية يقف شاب وفتاة،  
يرتديان ملابس نظيفة، ولا علاقة لهما بما يحيط بالمكان من دمار،  
هي ترفع يدها بالقرب من فمه، وهو يقبلها بلا هوادة، ثم

يدخلان من الفتحة السوداء، البرزخ القريب، ويغيبان بالداحل، لم  
تعد تذكر ما نسيت، ولم يعد قادرًا على سريان ما يدكر، اختلط  
موته لأخير بولادته الأولى، وهي لم تتذكر ما أراد أن يقوله له،  
تنسأهما الخرائب والدمار بالخارج، يصويهما عبّ الرمن الفضاض  
بداحس، ويغيبان في سخونة الثقب الأسود.



الصَّخْرَ وَالْقَتْلَ

صنينا العيد وخرجنا من المسجد، أسبقُ أبي بهرولة في طريقي إلى البيت، فلابد أن أرى الجزار وهو يذبح العجل. لكن أبي لم يتجه إلى البيت:

«أين سذهب؟».

ويرد أبي:

«صرك بالله».

نمشي مسافة طويلة، نقف أمام باب خشبي مطبوع عليه كفوف من دم ذبيحة قديمة، يطرقه أبي بكل قوته، ويخرج إلينا رجل قريب من عُمر أبي، يسس قميصا أبيض وينظرون حيش. ودون كلام تناوله امرأة بديعة جرابًا أسود من قمش سميك، يسحبه الرجل ويخرج معنا، يمر على صبيين صغيرين في عشة مجاورة، ثم نذهب جميعا إلى البيت.

من حلال كلام أبي مع الرجل طوال الطريق أعرف أنه العجرا، أحدثُ أتأمله برهو وإعجب، فقد كانت المرة الأولى التي يشترى أبي لنا عجلاً وليس خروفاً.

دخلنا، وجدنا جلبة كبيرة بانتظارنا وبعض أولاد الجيران يلعبون، العجل في حوش كبير بجوار بيتنا، أمي تقف خلفه وإحوتى من حوله مبعثرون، اقترب الرجل من العجل وتأمله طويلاً.

«لا يفع أن أدبح هذا العجل»

«ألا؟».

يسأل أبي الجزار، وملتفت جميعا إليهما، تنخفض أصواتنا بالحديث والأسئلة كي نعرف السبب.

«هذا العجل قرنه متر يعنى خطر وحركته الكثيرة لا تُطمئن  
اعذرني يا حاج».

«سعطيك ما تريد يا معلم».

«الصعف».

«موافق».

«وحساب الصبيبي».

ينظر للصبيبي

«موافق».

كبت هذه هي المرة الثالثة التي يرفض فيها حزار دبح هذا  
العجل، فوافق أبي على كل شروط الرجل دون إصـال.

لم يعد للجزار أى حجة. يفتح الحراب القماش ويخرج منه العدة.  
يناوله أحد الصبيين حلاً طويلاً. يقترب الجزار أولاً من الهدف الذي  
يقفز بقائمه الحليمي، لكن رفسة قوية طارت في الهواء قبل أن  
يلمسه، ينوله الصبي الثاني سكباً طويلاً يبدو أنها للمناوشة،  
نبتعد جميعاً مسافة عشرة أمتار، يريد أن تتفرج على الخطر دون  
أن يمسا، كفيهم سينما يحفل بالمعارك، نقف عند باب الحوش،  
ومن هنا بدأت المعركة.

خبا الجزار السكين عن عين الأضحية، وبرغم ذلك فقد هجم  
عليه العجل في أقل من ثانية، كاد القرن المٌخيف يغرز في ظهر  
الحراب، انتعد مُسرعا ثم لف بسرعة، عاجل الحيوان الشرس بطعنة  
في أنفه، فانتبه العجل وأخذ حذره بعد أن شم رائحة الدم، ثار  
وكاد يقفز من فوق السور الطيني القصير أو يحطمه، انتعد الجزار  
بصبيه وأسلخته إلى الخلف، حتى حرحوا من الحوش نهائياً، اقترن

من أبي وعلامات التوتر واضحة على ملامحه، والعرق بلبل حواف  
شاله الأبيض:

«عاور حجرين قدم».

يوجه الحزار كلماته لأبي وهو يلهث، ويتأكد أبي من صدق ما  
سمع.

«حجرين قم؟»

«يا حاج حجرين قدم»

وعندما يتأكد من فهم أبي لما طلب يجلس في ركن بعيد، يشرب  
كوب شاي مدته إليه يد من الجمهور الكثير، يرشف الشاي ويعقد  
الحصل على شكل «حبة» ثم يصنع واحدة أخرى ويعقدهما برباط  
وحد طويل.

يرسسي أبي لأشترى الحجرين، طوال الطريق وأبا أفكر فيما  
سيفعله الحزار بحجر القدم، رحت في جري وحنث في حري، يعصي  
أبي الحجرين للرجل، يقوم الحزار ويمش على أطراف أصابعه،  
يهمس الأرض حتى يصبح حلف العجل تماما، لو هرّ ذيله الآن  
سيبطم وجهه، يسند الحزار قبضتيه بالحجرين فوق ظهر العجل،  
لما عند العظمتين البارزتين، أعلى نقطة، وطول يحكهما بشكل  
بطيء، حتى همد العجل تماما عن الحركة، فكّه الذي كان مشغلا  
في مصع البرسيم توقف، أنه المصاب نسيه مؤقتا، كاث لذته  
واضحة بدليل ثباته وعدم حركته.

في هذه اللحظة تسلل أحد الصيغ تحت بطن العجل، رفع  
القدم الأمامي وربطه في الحلقى، والحزار لا يزال يحك ظهره  
بالحجرين، كان النصى الآخر بسحب العجل فيربط قائم العجل

الأمامى بالخلعى، تقل المسافة ولا يتحرك الثور السدى كان هائج  
مند دقنق، مخط شفاف ينزل من قمه وخط دم متجسط عند  
أنفه.

قل الحك فانتبه العجل، ولما انتبه عاد الجزار يحك بقوة، خارت  
قوى العجل وفقد ثورته ببطء، فقدتها بتكثيف اللذة والخدر  
سحب الصبي العجل أكثر فانتبه العجل لسحب قائمه الأمامى من  
مكانه، لكنه لم يهتم كثيرا، توقف الجزار عن حك ظهر العجل  
بالحجر وساعد قليلا، نقر كتف الصبي وسحبه للحنف بهدوء،  
فسحب الصبي صديقه معه العجل وحده ينظر إلينا، كأنه يسأل  
أين ذهبنا اللذة؟ كان مربوطاً بحبل متني، وطرف القيادة في يد  
الجزار:

«أول ما يقع تقعدوا كلكم فوقه مرة واحدة».

قال الجزر وأخذنا الدرجة القصوى للاستعداد. في غفلة، شد مع  
الصبيين العجل بقوة فتربعت قوائم العجل الأربع، شدوا مرة ثانية  
ونكسوا على بوره، حتى سمعنا اصطكاك أسنانه بالأرض، بعد أن  
وقع جريسا بشكل حماسي غريب لنجلس فوقه، جسيئ أنا على  
بطنه الطرية الدافئة، كان يصدر صوتا محييا، ويطمه يعلو ويهبط،  
لا أعرف لماذا أعطيتُ ظهري للجزار، لم أود أن أراه وهو يُخرج  
لسكين، بعد قليل توقف الصوت المخيف وصدر بدلا منه شجرة  
وحشرجة، ثم لطمنى من الخلف سائل هادر وساحن.

أثيرة وروحيّة

بدأت وقائع القصة عندما رار صديقه ذات مساء

وما الجديد؟

فالشَّيخ قطب يزور صديقه كل ليلة تقريبًا، يشربان الشاي واليسون ويقضمان أعواد البقسماط أبو سمس، يتحدثان عن أمور الحياة وتصريف الزمن، يحكيان ما يَرِدُّ في الأحلام، يربطانه بأواقح حتى ولو تلفيقًا، تدور الجوزة ويعلو الدخان، يرداد السكون ويقطع الصمت لسانان.

وما الجديد أيضًا؟

فالمحورة تدور كل ليلة بينهما، وهذه الموضوعات هي التي يفتحانها غالبًا ويغزلان منها أحاديث ممتدة لا تنتهي، الجديد أن وجه الشَّيخ قطب هذه المرة كان مسلوخًا.

سواء قشرة البرتقال الناضج تساوت ملامحه، قاله الشَّيخ إبراهيم بانتسامة بشوشة كعادته، لم يرعبه منظر وجهه المسلوخ، لكنه قال به هدوء

«لن أسالك ماذا حدث، فأنت ستحكي لي من تلقاء نفسك كما تفعل كل ليلة، أليس كذلك؟».

جلس الشَّيخ قطب أولًا واستراح، كأنه جاء من رحلة بعيدة، ثم راح يتحدث إلى صديقه الوحيد.

«آه يا شيخ، هذه المرة تختلف عن كل المرات، رأيتني أنزل إليها تحت، لكنني في الوقت نفسه أصعد إلى أعلى، تقترب روحي من شمس كثيرة ولا تحترق، هل رأيت من قبل روحًا تحترق؟ أتعدُّ عن الكوكب الأزرق حتى يصير نقطة حبر مصينة في مسيحة

الكون الكبير، ليتني كنتُ شاعراً كي أستطيع أن أصف لك عن طريق الكلمات ما صادفته في تلك الرحلة المثيرة، أو ليتني كنتُ موسيقياً حتى أستطيع عرف ما صادفني من أصوات لها حس الألوان، لأبد أن ترى بنفسك ما رأيته يا شيخ إبراهيم حتى تصدقي». «أنا أصدقك دون أن أرى».

يكمل الشيخ قطب:

«كان وحوذي بالقرب من أثيرة فوق إدراكي، ولأول مرة أراها ليست مجرد كائن من عالم غير عالمنا، فعندما رأيته مرة واحدة في أحلامي الدنيوية المشوشة كانت ساطعة وباهرة، اللؤلؤ يخرج من بين شفتيها، كلماتها حروف مضيئة على شكل كلمات سموية». يسحب الشيخ إبراهيم نفساً وينفخه لأعلى ويقول:

«منذ شهر أو أكثر وأنت تحكي لي حكايتك معها، ولكن أليس من الغريب أن تخرج معك من الأحلام؟».

عندما سأل صديقه توقف عن الاسترسال في الكلام وتنهَّد:

مد يده وتناول العبابة، مسح فوهتها وقال قبل أن يصعها في فمه:

«وربما أنا الذي دخلتُ إليها».

يمط الشيخ إبراهيم شفته السفلى ويرفع كتفًا واحدة قليلاً، في تلك اللحظة تكون الغابة مستقرة في فم الشيخ قطب، يسحب منها نفساً يشفط صدغيه الملتهبين للداخل: «أكمس».

يقول لشيخ إبراهيم، ويرد صديقه بعد أن يطرد الدخان من رئتيه:



«عندما دخلتُ بالأمس على أثيرة قالت لي لا تقرب زوجتك الأولى لكنني يا شيخ إبراهيم لم أستطع فعل ذلك، فروحية زوجتي واسة عمي وأم أولادي، وستصبح جدّة بعد سنة أو سنتين، لا يمكن لي تركها حتى ولو أزهقوا روحي، ليس لأنني الآن أعشقها، فقد ابصتُ كل شعورها ونما شعر آخر في وجهها لا تحطنه عين، لكن لأن للعشق في قلبي معها منزلة الذكرى الجميلة؛ عصبتُ أثيرة وكذبْتُ عليها. لم أكن أعرف أنهم في تلك الطبقات البعيدة يعلمون كل ما يفعله دور أن يخبرهم به وعرفتُ أنني فعلتُ ما نهيتني عنه»

يعمل الشيخ إبراهيم الشاي:

«ولكنك اتفقنا أول أمس على أنك لن تعصي أوامر أثيرة لأنك نصيها هي الأخرى، ها، أكمل. ماذا حدث بعد ذلك؟»

ويعود الشيخ مسلوح الوجه ليربط ما انقطع من حديثه.

«لذي اكتشفته عندما كنت أنزل إلى أثيرة أن ملامحها تتشابه جدا مع ملامح بنت كنت أحبها مد ثلاثين سنة، وبذلك استحوذتُ أثيرة على رقة قلبي بمنزلة امرأتين، حب قديم وعشق حديث، أه يا شيخ، والله لو تدري بالنار المشتعلة بحب الاثنتين، لا أستطيع الابتعاد عن طيف إحداهما إلا بموت، حتى موتي، أستعفر الله العظيم، يهيا لي بأنه لن يمنعني عن التفكير فيهما معا».

يعبر الشيخ إبراهيم الحمر ويشمط نفسه طويلاً فتوهج الجمرة ويشعل الحمر:

«وماذا حدث عندما عصب زوجتك التي تنزل إليها كل ليلة؟»

ياخذ الشيخ قطب نصيبه من الحمر الجديد أولاً:

«عندما نزلتُ إلى أثيرة كانت بانتظارني، اخترقتُ سبع طبقات

للأرض في ملح البصر، كأنني أغوص في طبق زبادي، وأشم رائحة  
 يسمين، والله يا سمين يا شيخ، ما إن وصلتُ حتى تلقفتني  
 يداها البيضاء وداعبت وجهي بأظافرها المضيئة، بعد أن قضيت  
 وقتًا طويلاً تركتني وانصرفت، وعندما انصرفت عمت، لكنني ما إن  
 عمت؛ والله يا شيخ إبراهيم، لم أدر بنفسي ولا بمن حولي، رحمتُ في  
 دنيا غير الدنيا، طول ومريكا وألوان ومخادع من حرير، وشراب  
 تستحوذ رثعته على الحواس فلا يُعصى لها أمر. لم أخرج من هذه  
 الحالة السحرية إلا على صوت يشبه طقطقة حطب حاف يشتعل،  
 وم إن استيقظتُ حتى وجدت السرير يحترق بي، وفيما لحمي  
 يُشوي وفمتُ أثيرة قريبة مِنِّي وهي تضحك وتقول بصوت رنان  
 يملأ فراغاً كالذي بين السماء والأرض «لو أن لي سلطاناً على روحيتك  
 نك لجعلتها ثرائاً مثل الذي خلقتما منه، ولأدبتها في إباء من  
 نار ورميتُ رمادها في البحر، لكسي لا أقدر إلا على من زوجته  
 نفسي وتعطرت من أجله، وعزفتُ المريكا لمسامعه ونسجتُ الألوان  
 لعينيه، لا أقدر إلا عليك أنت»، عندما قالت ذلك وقع علي سهم  
 الله، وكان الجن قد لبسي يا شيخ إبراهيم والله».

رد الشيخ إبراهيم برود:

«لقد قلت لي من قبل أن أثيرة نفسها جن، فما الجديد؟».

توقف الشيخ قطب عن الحكى وعن الشفط من الغابة، احتقنت  
 ملامحه وقال:

«الجن يسكن خيالاً كما لو كان كائنات مشوِّها، له قردن في رأسه  
 وأظافر أطول منه، لكن الجن الذي هو أحمل من ابشر كان  
 بعيداً جداً عن خيالي».

«وماذا قلتَ لها؟».

يرشف الشيخ قطب من كوب الشاي:

«قبل أن أقول شيئًا فتحت عيسي فوجدت نفسي رقد بجوار روحية ابنة عمي، كيف صعدت طبقات الأرض السبع مرة أخرى، كم استغرقت رحلتي من تحت إلى فوق؟ والله لا أعسم، أحسست وجهي ملتهأ، لم أشعر بصعودي أبدًا، وجدتي نائمًا بجوار روحية اتحس الملاءة وأناكد من وجودي بالفعل، رأيتي نائمًا بجوارها وأنا على هذه الحال فصرحت، حتى أنا عندما ملحت وجهي في امرأة خفت من شكبي، رأيتي، كما تراني أنت الآن، مليئًا بأصداق برتقالية كحلد سمكة برونزي، لا أطيق أن يلمسني أحد تحيل، إسك ابوحيد الذي لم يصبه الرعب من ملامحي»

رشف الشيخ إبراهيم من كوبه:

«لأنني الوحيد الذي أثق بما تقول، أثق بخيالك، أصدق حكايتك وأؤمر به دون حاجة إلى براهين يطلنهما من لا يعرفونك جيدًا سني، أب الواقع الأرضي وأنت الخيال الجامح، لا يمكن لأحد العيش بدون الآخر أبدًا».

ينتبه الشيخ قطب ويحملك في صديقه:

«وكن ما أقوله لك حقيقة وليس حيالًا»

يتسم الشيخ إبراهيم:

«أعرف أعرف لكن أكرم. قل لي. كيف استطعت أن تفعل من أثيرة وتعود إلى روحية؟».

رد الشيخ قطب يد صديقه بالشي، فقد كان يستعد بشكر كبير لتكملة الحكاية:

«فأنتي أن أقول لك شيئًا مهمًا بعد أن أصبحت لا أرى أمامي

إلا الأنوار ولا أسمع إلا لمزيكا والطبول؛ شعرتُ بأنني طائر كبير  
الحجم مثل جبل، وأخذتُ أرهف وأرهف وأرهف.

عندما قال هذه الكلمة قام من مكانه ورفع دراهمه كمن  
يستعد فعليًا للطيران. ثم أكمل

«وعندما خرجتُ من أجواء السريـر الحريري الذي كنتُ عاطسًا  
فيه مع أثيرة، انتقلت بسرعة البرق إلى سريـري الحديدي مع  
روحية، تلمستني روح أثقل وبدأت أفكر بشكل متزن، لكنني  
إبراهيم ما كنتُ أصل إلى عالم حتى أشتاق للآخر، وما أن يأخذني  
صدر واحدة حتى أهفو إلى صدر الأخرى، وشعرتُ بأن روحي  
تسكنني، أو روح واحدة منقسمة، نصفها مأخوذ من طائر، ونصفها  
الآخر من وحش كاسر، أما ذلك الإنسان الذي يطلق اسمه على  
أنفسنا فلا وجود له إلا في خيالنا، وأن ذلك الاعتقاد الخاطيء هو  
الذي يحول أرواحنا إلى خرائب».

«خرائب؟!».

قالها الشيخ إبراهيم، فجلس الشيخ قطب، مؤجلًا الطيران ورد  
«نعم فأنا أشعر بروحي وكأنها مُتزعجة من عدة كائنات لطيفة  
لا تصحّذ لغة الكلام».

ركب الشيخ إبراهيم الحوزة في استراحة قصيرة، ثم قدّم لصديقه  
بعض عيدان البقسماط، تناول الشيخ قطب عودًا وأخذ يقشر  
المسمم منه بلا وعي كامل، ثم قال

«عندما كنتُ أذهب إلى أثيرة أصبحُ كالمربوط بروحي، روحي غير  
المحدودة، التي تشمل الزمان والمكان وما بينهما، وعندما تتقنني  
روحية أصبح كالمربوط بجثتي، ثقيلًا وأشعر بكل ما يحدث من

«سوي، وهذا أيضا له حلاوته يا شيخ والله، إذ كيف أشعر بأنسي  
انتمي للأرض وأدب عليها بلا جثة ثقيله، وكيف أشعر بأنه يمكنني  
تعبير ذلك الواقع إلا بروح خفيفة لا تعي فعليا كل ما يحدث من  
«مولها».

«لم تقل لي حتى الآن ماذا حدث عندما عصيت أثيرة؟»

«عادت الحوزة للدوران بينهما من جديد، سحب الشيخ قطب  
نفس عميقًا وزفره مرة واحدة قبل أن يقول:

«مراحل الانتقال من تحت الأرض إلى فوقها هي العملية الأصعب  
لأن كنتُ أشعر وكأنسي بنه تحاكي تخرج من الأرض، ثم  
أذهب لتكون طعامًا لرجل يستعد للعشق، تترس عاشقته  
لاستخراج خليفته في الأرض، عملية مُعقدة أشعر خلالها بأنسي  
أصهر، اخترق غلافًا سميكًا من أجل تبديل العالم، من أجل  
التحول من شيء إلى شيء آخر، وربما من لا شيء إلى شيء، رحلة أحب  
فيها نفسي وأكره المرأة، فهي أسحب ما اخترعته يد البشر، بدونها  
لا يمكن للإنسان أن يتحيل نفسه أي شيء، طائرًا فوق جبل، حشرة في  
بطن جحر، سحابة هائمة ولولا هذه المرأة لما عرفتُ بأن أثيرة  
حرفتني وسدخت وجهي، فأنا لم أشعر بأي ألم، لكن منظرني فقط  
هو الذي أرعني، المرأة حُجِمت الخيال وحُبست كل واحد من  
داخل جثته».

«دع يفتح فمه بصعوبة، وضع عودًا من القشماط وأخذ يقضمه  
بأسنانه الأمامية، فسأله الشيخ إبراهيم:

«مشكلتك، لوحيدة يا شيخ قطب أنك لا تستطيع التعبير عن  
مرحلة التبديل التي تحدث لك بشكل دائم، ألم تقل لي بالأمس  
أنت بين أثيرة وروحية تنقر كل ليلة؟».

رد بعد أن أكل رُبِيع عود البقسماط فقط:

«روحي الحاترة هي التي تنقل بينهما».

«وكيف تعرف وأنت هنا بأنك ذهبت إلى هناك؟»

«أنا لا أعرف شيئًا. كل ما في الأمر أن الإشارة تأتيني ولا أردّها، فعندما تعقد أثيرة العزم على قضاء ليلة معي لا أستطيع ردها إلا وهي مرضية، أزل إليها من طبقات شافّة لا يستغرق اختراقها وقتًا يذكر، تستقبلني بالأناشيد الشجية، تطوف حولنا المرامير والنقّارات، أجدها بانتظاري في أحسن هيئة وأجمل حُلة وأرق عطر، ويمكن لك يا شيخ أن تُحسّ الناقص، أما عن العلة التي أصير إليها فهي مزيج من سطوع ضوء وروعة ألوان لا يد لك أن تراها بنفسك حتى تصدّقها».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع أثيرة؟».

فكّر الشيخ قطب قليلًا:

«ستشف روعي حتى تصبح مادة رخوة يمكنها أن تستحيل إلى جميع الأشياء».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع روحية؟».

ستصبح روعي مُعتمدة وثقيلة، ساكنة يفتئها العبوس، فهي في تلك الحال لن تمتلك القدرة على إمكانيّة التحولات المدهشة»  
«وهل أنت مطمئن لأثيرة؟».

«نصف اطمئنان. كما هي الحال بالنسبة لروحية نصف اطمئنان أيضًا»

ثم بدأت ملامحه تتبدل وتحتقن:

«لأن حاءت الإشارة».

«هل ستذهب؟».

«نعم. لا أستطيع رد الخيال».

قام الشيخ قطب وهو يحمل، يمشي باتجاه الباب دون وعي  
دمل، ثم غاب في ظلمات الخارج.

البديل والمُحتمل



الرجل النظيف نائم على مريو معقم، والمصابيح المتوهجة  
أحالت الليل إلى نهار، سأل المريض الطبيب طبيبه المبتسم.

«وهل تضمن نقاءه ونظافته يا دكتور؟»

اتسعت ابتسامة الطبيب دون أن يرد، بعد قليل دخل زميل  
له أكثر حيوية، أخرج من شنتته الصغيرة مريجة وعباها بسائل  
أصفر، شغل الرجل الأول الذي اتسعت ابتسامته الأجهزة والشاشات،  
اقترب الطبيب المليء بالحيوية من المريض النظيف وعزز سر  
الحقنة في ذراعه، قل أن يسري البج في عروقه ودمه سأل الطبيب  
سرة أخرى.

«هل تضمن نقاءه ونظافته؟»

يخرج زميله طبيب التخدير، يغلق من خلفه الباب، ويرد  
النظيف الوحيد في الغرفة على مريضه النظيف:

«إيه صايح، وحياة أولادي يا ماشا»

بدت محتويات الغرفة متداخلة ومشوشة، الستائر النظيفة  
تختلط بالدولاب المعقم، المصابيح تلمع وتبرق، ثم تخفت وتُطفأ،  
عند هذه الحالة يُفتح باب الغرفة، يدخل ممرضان يرتديان زياً  
أبيض، يجران بينهما نصف إنسان، يمسك كل منهما ذراع، الرجل  
الذي يتوسطهما له رأس وحيد وذراعان بشكل مكتمل، أما نصفه  
الأسفل فغير موجود، فقط بقايا لحم تتدل كجذر شجرة حرج  
عنه من الطين، رأسه يتحرك بشكل طبيعي، يحاول أن يعلت  
أوعيه من قبصتي الممرضين القويين، ينظر إلى الطبيب والمريض  
النظيف، يُحذر بسبابته ولسانه يستطيع إخراج الكلام.

«أريد أن أنبهكم لشيء. أنا لا زلتُ أحيًا. أعيش وأشعر بكم هـ فقط للعلم».

ويرد الطبيب الذي كان مشغولاً بأجهزته الطبية الكثيرة ومتابعه الشاشات المضئية:

«نعلم ما تقول يا ...».

يرد أحد الممرضين بسرعة ويكمل لرئيسه الكلمة «أربعة وأربعون».

يُكمل الطبيب وهو يسحب نصف الملاءة المعقمة عن مريضه التنظيف بحنو واضح:

«وهل قال أحد شيئًا غير ذلك يا أربعة وأربعون؟»

لا يصدق الرجل أذنيه، فقد رأى أثناء دحوله طبيب التخدير يخرج من العرفة نفسها، وهو يرى الآن مريضًا نظيفًا يستحوذ على كل العناية الطبية اللازمة، لقد قالوا له كلمات شبيهة منذ أيام قليلة، ورغم ذلك فقد خرج من العرفة بلا نصف أسفل، للحق خرج ذات مرة بقدم واحدة، ثم المرة الأخرى بدون القدم الثانية وبعض مكونات بطنه. فسأل نفسه: «ماذا أدخل غرفة العمليات للمرة الثالثة وأنا لا أشتكي من أي مرض؟».

قال أحد الممرضين لزميله:

«خُذ حذرَكَ. فسوف أتركه لك دقيقة».

أفلت يده من ذراع المريض، ثم ذهب وأحضر قطعة قماش كبيرة ومساحة، ألقي بهما في المكان الذي علقا فيه نصف الرجل، مسح السائل المخاطي الذي كان يسيل، ثم أسنده مع زميله مرة أخرى.

لم يطمئن الرجل لمجئته في مثل هذا التوقيت، فقد لاحظ أن رجل  
لأعمار النائم يحرك ذراعًا واحدة فقط، التفت يمينًا ويسارًا فرأى  
ذراعيه هو مكتملتين، وحَّه كلماته للطبيب:

«ماذا لا تنقلوا إليّ قدميه. بدلا من أن يأخذ هو ذراعي؟».

يتسم الطبيب ويتجه ناحية المريض النظيف، كان قد بدأ يغيب  
عن العالم المحيط به، فسأل خط كفتله ضفافة من بين شفثيه،  
أمسك الطبيب بمديل ومسح عم المريض المحتمل بكل الرقة  
الممكنة، وعاد الرجل النصف المريض المديل، يوجه له الأسئلة من  
مديل

«لقد جئت إلى هذه الدنيا سليمًا معافي».

«صحيح»

ينظر الطبيب للممرصين وتُدبم النظرة، ودون أي كلام بينهم،  
بلقين نصف الرجل على سرير مهمل في ركن الغرفة، ويسحبون  
عديه ملاءة عظيمة، ينام فلا يستطيع النهوض، بعد قليل يدحر  
طبيب التعدير مرة أخرى، وكما فعل مع المريض النظيف يعبر  
في نصف الرجل، يهر المريض المديل ذراعه أولًا معترضًا على أن  
نحقر بالمحدر:

«مخدر لا».

يقترّب منه طبيب التعدير وفي يده الحقنة جاهزة لغوص في  
ذراعه:

«أنت مُخدّر منذ مولدك هل ستفريق اليوم علينا؟»

أمسك أحد الممرصين بالذراع المعنّية، وغاصت الحقنة في لحمه  
المرتعش، اقترب طبيب البنج من زميله وقال بصوت جاهد كي لا

يصل إلى الممرضين:

«إن قاصت منه الذراع الأخرى لا تتخلص منها، فأنا أحتاجها».

يبتسم:

«ذراع فقط؟ أنت تؤمر يا باشا».

يخرج طبيب التخدير بعد أن يحوّل الرجلين إلى جثتين ساكنتين مستظمتي الأنفاس، يتحرك الممرضان كما يفعلان في كل مرة، كل منهما يعرف ما عليه عليه مهنته، يقترب الطبيب من مريضه المحتمل، يرفع عنه الملاءة، يطمش أولاً لبض القلب وحركة التنفس ثم يذهب ليتفقد نصف الرجل: المريض المديل، لم يكن مهتمًا إلا بما يريد منه فقط، نطف ذراعه من الوسخ، عقمها ولمه بالشرائط الطبية البيضاء، وما تبقى منه بعد ذلك كان في عدد «الضردة».

بدأت الغرفة تعج بالأصوات، حَزْ وقرقعة، طرقعات غير منتظمة ثم همد كل شيء، سكنت الأصوات، فقد أصبحت الأمور كلها على ما يُرام.

رضا وصباح

أدق الدعوف في دار الحاج رضا، وتدور أناريق القرفة على  
السموف، يصح اللون الأحمر للشربات والديانج هو المعتاد لعيون  
البحران لمدة ثلاث ليالٍ بأيامها الطويلة، فأول أمس جاء الحاج من  
أرض الحجاز يزهو في جليات أبيض مزهر، دارت الصواني بالمشاريب،  
وأثرت النساء عن الفرحة بالزغاريد والرجال بحلقة ذكر والأطفال  
الهنسة والأناشيد، جاء الخطاط ليعلن للحميع أن الحج مبرور،  
ورسام ليزين مدخل البيت بجمل وسفينة وطائرة

أول مباركين كانت صباح، ولصاح معرة حاصة عند الحاج  
والدريت كثيرة، مع صاح تحضر أميرة دائماً، وأميرة الخالق الناطق  
صاح، عينها بقرية حوراء، وشعرها خروبي غريب، وخطة عينها  
دومة بدقة في مكانها المكحول

بأني العاجة بالشاي، تستقر الصينية بين صباح وأميرة، يكر  
الحاج على بواجذه وهو ينظر لصباح، تزغر له العاجة كلما فعل  
هذه الحركة.

بفرك عريس الحجاز مسبخته ويحكي عن الأيام البيضاء الخالية  
من كدر دس، يسترسل في وصف مشاهد الطواف ورمي الحمرات،  
ويح بكفه على صدره النقي وثيابه النظيفة

فهل أن يدخل الحاج أول أمس يتوقف أمام رسمة الحمل، كانت  
هذه غير دقيقة، لتدلى السفلى أكثر من اللازم، لم يعلق، فهو  
داف أن صاح هي التي اشترت البويا على حسانها، وهي التي  
أخذت الخطاط وكلمت الرسام، في كل حجة كانت تفعل ذلك، هذه  
أول مرة الأولى التي يذهب فيها الحاج رضا للأراضي المقدسة،  
والآن تكون الأخيرة، فاكتماب اللقب لاند له من الاستمرارية في

زيارة الرسول بشكل دائم، لم يهتم الحاج رصا وهو داخل بال جلبابه الأبيض شابه لون أزرق خفيف، فقد مسح بعض الثوب من مدخل الدار، أكمل سيره وسط أهله وجيرانه من المدعوين، يسبقهم الأطفال وحاملو الدفوف.

«تفضلوا الشاي».

قال وهو يستعيد مراسم دخوله المهيبة أول أمس، صباح أمام، لا ترال متسمة، وأميرة شغطت رشقة واحدة من إبريقها، تصحك فتظهر غمازاتها تسر الناظرين، عيناها بلون البحر السائل، تشبه أمها لكنها أكثر منها بضارة وأدق نظرة، الرغبة الخفيف في وجهها يشير إلى طفولة تحزم حقائبها وتعييب عن قريب.

يفتح الحاج شنطة مركونه بجواره، يدس يده الكبيرة في محتوياتها، يقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ثم يصمت وكأنه تذكر شيئا، وبسرعة يجذب جرار الوسطة فيغلق الشنطة، يرفعها بيديه الاثنتين ويقدمها لصباح وأميرة:

«كلها لكما».

وعين الحاجة لا تغفل عما يقال، تتابع بحرص ما لا يطوق به لسان زوجها، فقد تعودت منه مثل هذه التجاوزات، ولأن بطبها لم تلعب فيه العيال، ولم يشتعل قربها ويطهو ولو طفلا واحدا، فقد راحت تسامحه السنة بعد الأخرى وتلتمس له الأعداء، تتأمل صباح قليلا، لكنها تتوقف أمام شدة صدر أميرة، تقيسها بنظرها وتقارنها بكتفي الحاج رصا، وترى المقاس مطابقا، محجرتها العاطش أيضا، عيناها الزرقاء ووجهها العريض، كل شيء في أميرة كأنه نُجيت من روجها، الحاج رصا، حتى المسافة الكبيرة نسبيا بين فتحتي أنفه وشمته: والتي يغطيها شاربه، كانت كبيرة أبدا لدى أميرة

بحس الحاجة سرعان ما تستغفر وتعود لرشدها الأرضي، وتتمتم  
بموت لا يتجاوز حلقها:

«لحمد لله على كل شيء»

تفتح صباح الشنطة، أول ما لمست أصابعها كانت زجاجات عطور  
مبعوعة، تحتها أكياس مغلقة، ثم ملابس موصة ملونة لا تناسب  
لاحتشام والمداينة، وبرغم ذلك سرت صباح لرؤيتها وشهقت، وأميرة  
المليقت صيحات السات، والحاجة تتابع من بعيد، ثم تقترب من  
وجهها، تسند كفها على كتفه برفق:

«الصيوف يا حاج».

دنته للمدعوين، يرفع رأسه والدم يكاد يصي، أوردته ويشد  
هامته، تلك الحالة التي لا يصل إليها مع الحاجة أبدأ، ذلك الوجد  
باحتلظ بالرغبة، تلك القدرة الطاعية التي تنهها صباح بداخله،  
مجرد وجودها يشعل الشرايين الميته، ويحصر في دمه شيئاً قديماً،  
أمر غامض معي بتحسين سلالة الوجود، وجود الرغبة واللذة  
يسس أي شيء آخر، كتلك المسكنات الأخلاقية المؤقتة، بعد تجاوز  
المشقة الإيمانية التي سرعان ما تدوب وتلاشي، بعد نفسه وجهها  
لوجه مع حائط إنساني صلب لا تستطيع الكلمات أن تعبده، ولم  
تخل لقوا بين الأرضية في فهمه، أو حتى الاقتراب منه، ذلك الحائط  
الصب الشفاف في آن، والذي يُعطي للحياة رونقها، فتأخذ الأرض  
حرفه وتترين، الرغبة المنفلتة المصعوبة، قفز متواصل لكرات  
الدم الممتعة، أشياء متناثرة ولديزة لم تستطع حزمة الأخلاق  
وجدها لجمعها.

عين الحاج رضا توهجت كمنارة، وقلبه يكاد يقط من صدره،  
«مشووعه المعلق بأهداب السماء توارى خلف الكلمات الطارحة



التي يديرها الآن، وفتنة الطبيعة تجسدت وصنعت في روحه فرحاً دائماً.

بعد أن مسح الحاج رضا الصالة الكبيرة بعيبه الواسعتين، وبعد أن تأمل ضيوفه وكأنه يراهم للمرة الأولى؛ صفق بكفيه البيضوين، كانت الحاجة تقف أمامه:

«الغداء للضيوف».

وتعرف أن ضيوفه غير صيوف المناسبة المبرورة، تسمع صياح صوته فتتلمح:

«عندي مشوار».

وتقف أميرة في ذيل أمها، وقبل أن تتصرف، وتحديدًا بعد أن أدارت صياح ظهرها له؛ أمسكها الحاج رضا من معصمها بقسوة لا تناسب الموقف، وفي هذه اللحظة تحديدًا، تشعر الحاجة أن الأكسجين ينسحب تدريجياً من حولها، لفت صياح رأسها، أرعش شفتيها دون كلام، أصابت هذه الرعدة ملامح الحاج باضطراب ورجفة، فخرجت منه الكلمات دون ترتيب مسبق.

«الأكل حالاً يا حاجة».

كان صوته العالي لا يناسب المسافة القريبة التي تبعد روحه عنه، قالت وهي تتجنب الغوص في عينيه:

«نسخته؟».

يردف وكفه لا تزال قابضة على المعصم.

«بسرعة».

تردد أميرة بين الجلوس والانصراف، ويسمع صوت صياح صعيقاً:

«فرصة ثانية. تأخرونا».

أفلتت يدها من قبضة الحاج، حطت إلى الباب وهو حلقه. ورجته خلفه، كقطار كل عربة فيه تعرف مكانها ووظيفتها جيداً، وقفش صباح بالخارج وأمامها أميرة، ورفع الحاج رضا يديه الأثنتين فوق الباب، فأصبح كخفاش أبيض يستعد للطيران، اضطربت عين صباح عندما تلاقت مع عين الحاجة، لكنها لم تستمر فيها طويلاً، تجاوزتها إلى درجات السلم، تقدمت الحاجة زوجها وأصبحت أمهه، تبعهما تنزلاً السلام، وتسمع من خلفها صوت.

«خطوة عزيزة. شرفتونا والله».

الرجل وطريقة موته العجيبة

حلقتُ ذقني بعد أن تركتها شهراً كاملاً، كانت طويلة مشعثة، لم ينتفت لهذا التغيير أحد، لم تعلق روحتي على خلو وجهي من لشعر بعد الحلاقة، انتشرت رائحة الكولونيا وصعدت من حول دوائر غير مرئية، صففتُ شعري ووقفتُ أمامها مدة طويلة حتى تلحظ ذلك التعبير من ثقاء نفسها، بالفعل، استيقظتُ ودركتُ لسرير، نظرتُ إلي من فوق لتحت، ثم حدثتني عن الأشياء نفسها التي كنت تحدث عنها بالأمس، بلاطة مخلوعة في الصالة تحتاج لترميم، وحوص المطبخ يخز المياه

صفتُ بكلامها، فكأنني لم أقم بحلاقة ذقني، حتى أنني شككتُ في أنني قمتُ بفعل شيء جديد. عدتُ إلى مرآة الحمام مرة أخرى، تأملتُ وجهي، كان مخلوقاً وبطيئاً، تأكدتُ من ذلك مرتين وأبداً امرأ أصابعي على ذقني الناعمة، وتأكدتُ أن المشكلة تكمن في روحتي، فهي لم تزد أي تغير طرأ عليّ. لم أحد ما يمسح أن ألقت بظرفها إلى تلك المستجدات، فقلتُ لها بصوت رقيق يميل للرومانسية:

«ألسنتُ أفضل هكذا؟»

وزنتني بنظرة طويلة ولم ترد، ثم بعد شهيق عميق ورفيع عاضبتُ فقلت:

«ستظل كما أنت ولن تتغير أبداً».

أشيرُ بسداحة إلى وجهي، أمسح بأصابعي مرة أخرى على ذقني لتأكد من نعومتها:

«لقد حلقتُ ذقني وتعطرتُ ما رأيك؟».

لم تندهرش، ظلتُ ملامحها ثابتة على تعبيرات باردة كما هي،

ابتعدت عني وخلعت كل ملابسها، لم تبق إلا بقميص شفاف لا  
يتناسب مع برودة الجو:

«كل محاولتك للتغير فاشلة».

قالت ثم رفعت قميصها حتى ركبتيها، صعدت السرير وتأهبت  
للنوم.

لمست كتفها بأطراف أصابعي، فتحت عينا واحدة فقط لتراني،  
فانتهرت هذه القرصة وقلت لها:

«أشعر بشيء غريب يحدث لي».

فتحت عيني الأخرى:

«أخيراً فهمت؟».

كنت محتاراً ومرتبكاً وأنا أنصت لكلماتها:

«فهمت ماذا؟».

سألتها..

«أناك ميت».

ردت علي ثم قامت من نومها وتركت السرير، اتجهت نحو  
وتأملتني حيناً عن قرب، كاد أنفها يلمس طرف دقي:

«أنت ميت منذ مدة طويلة. لكنني تعمّلتك فقط لأنني لا  
أحب قتل أحد».

وقفت أمام المرأة أتأمل ملامحي وحالي، حملت جيداً فلم أر  
وجهي في المرأة، سواء الوجه المخلوق أو قبل المخلوق، كانت صفحة  
المرأة صافية، لا تتحرك فوقها أية ملامح. لوحنت بيدي لنفسي كما  
لو كنت أودع مسافراً، لكن يدي أيضاً لم يظهر لها أثر في المرأة

فتحتُ دولاب ملابسي، كأنني أنتظر هذه اللحظة منذ زمن، أخرجتُ الكفن الذي أعدته منذ سنوات طويلة، وتحديدًا عندما داهمتني أزمة قلبية أحريت بعدها عملية جراحية خطيرة، بعد خروجي من عرفة العمليات بأيام قليلة اشتريتُ كفني واحتفظت به. يبدو أن دوره قد جاء، أحاول الآن أن أتذكر متى أحريتُ تلك العملية، فلم أستطع حساب الزمن ولا تمييز الوقت.

أخرجتُ قميصي الأبيض الفضفاض، ارتديته للتأكد من مقاسه، حاولتُ صط ملابسي الجديدة فلم أستطع ذلك بمفردي، لم أود الخروج قبل أن ألبع روجتي، أيقطتها، فركت عينها وحكّيت رأسها، دُرْتُ في ثوبي الجديد لأفرحها عليه، تأملتُه جيدًا ثم قالت: «هذا الرداء لا يُلبس هكذا».

لم أفهم ما تعنيه بكلمة «هكذا» استفسرتُ في براءة: «ماذا تقصدين؟».

قالت وقد أوشك صرّها على النفاذ: «أنت ترتدي كفنك فوق الملابس».

شكرتها على تلك الملاحظة، دائماً تلفت نظري لأشياء أجهل التوصل إليها بمفردي، فهي التي نبهتني ذات صباح إلى أن أدني يخرج منها شعر، وفتححتي أنفي أيضًا تلفظ شعيرات كشوشة صغيرة، كانت مثل هذه الملاحظات العابرة دليلاً على مرور زمن، لكنها لم تكن تُعلق على الزمن، بل على آثاره.

وافقتُ على شكري لها بهزة بطيئة من رأسها، ثم عادت إلى سريرها مرة أخرى.

خلعتُ الرداء الأبيض، ثم خلعتُ ملابسي كلها، ارتديتُ بعد ذلك

كفسي على اللحم، كان الحو باردًا، لم أستطع ربط الأشرطة البيضاء حول حصري دون مساعدة، أيقظت زوجتي، هزتها يدي برفق، وربما برقة، فأنا لا أود أبدًا أن أسبب إزعاجًا لمن حولي، استيقظت زوجتي وعلى وجهها علامات الضيق، رغم أنني لا أقصد مضايقتها أبدًا، كانت في كل أحاديثها الموجهة إليّ تحدثني عن فشلي المتكرر، وصوتها دائمًا يطن في أذني «أنت أخيب خلق الله» أقنع نفسي بأنها تمزح معي، ولم أصدق أنني خائب إلى هذه الدرجة.

ما أن استيقظت حتى كوّمت ملابسني التي كنت أرتديها منذ دقائق، عباتها في كيس بلاستيك كبير ووضعتها مع ربالة اليوم الغانت، عادت إلى وهي متأهة ونشيطة، أدخلت ذراعي في القماش وربطت الحزام، ثم صرخت في فمأة:

«كيف سأربطك وأنت واقف تفرك هكذا؟».

نظرت إلى السرير، لمحت البطانية فطبقتها، رست الملاء وساويت الوسائد ببعضها، في السنوات الأخيرة اعتدت أن أفعل ذلك كل صباح، لكنها صرخت في مرة أخرى:

«كيف تفعل ذلك؟ لابد أن تعرف أنك الآن ميت. ولا يمكن ميت أن يرتب سريريه».

في تلك اللحظة الحاطفة؛ قطعْتُ طريقًا طويلًا وشاقًا حتى أعرف أنني فعلاً ميت.

نمت على السرير وأنا أحاول ضبط تنفسي كي لا يتحرك بطني، سأحاول قدر الإمكان أن أوحى لزوجتي بخروج الروح من بدني، أغمضت عيني لأندو شبيهًا بالأموات، في الحقيقة، لم أكن أعرف عن الأموات إلا بعض معلومات نظرية، لم أشعر أبدًا بما يمكن أن يشعر

به ميت، فكل ما يربطني الآن بالأموات هو قباعتي الشخصية  
موتي.

شدت زوجتي الرباط على يدي، لفنتني جيداً، بعد أن ربطت  
قدمي نظرت طويلاً إلى أظافري، ثم تأملت الرباط قبل أن تمد  
يدها وتفك عقده، عندما سمعت صوتها فتحت عيني، لا أعرف  
لماذا فتحت عيني رغم علمي بأن أذني هي التي تسمع؟  
«لا يمكنني أن أربط قدميك، إذ كيف ستمشي عندما تخرج من  
هنا وتبحث لنفسك عن مقبرة؟».

هزئت رأسي وعدت لإغماض عيني مرة أخرى.  
«الفعلي ما يروق لك».

كنت أصوب عيني إلى امرأة التبريجة الطويلة بين حين وآخر،  
ثم التفت لزوجتي أحاول فتح مجال للكلام معها.  
«أنا لا أرى نفسي في المرأة».  
حملت أولاً في المرأة ثم ردت علي:

«هل سمعت من قبل عن ميت يرى نفسه في امرأة؟».

عدت صاغراً لسيرتي التي ارتصتها لي زوجتي، فقد أقرت بأنني  
ميت، ولم يبقَ فقط إلا التوقيع على ذلك الإقرار وإقامة المراسم.  
عندما اقتربت من باب الشقة سمعت بعض كلمات طائفة في  
لهواء، تقريباً كنت أنا المقصود بها:

«بداية من اليوم يجب أن تعتمد على نفسك ولا تنتظر أن  
يساعدك أحد. فأنت منذ الآن ميت. لن تجد هناك من يخدمك  
مشي هل فهمت؟».



تصارفت أحاسيسي وأنا أسمع هذا الكلام، فمن المفترض أن يتحدث المييت مع أشخاص من عالم آخر، لا أن أتكلم، وأنا المييت، مع أشخاص من العالم الذي مت فيه وأستعد لتركه، كنت بالفعل مرتبكا، لكن ذلك ليس جديداً، فأنا طوال حياتي مرتبك، لا يُضير إن أصبحت طوال موتي مرتبكا أيضاً.

وقفتُ قبلًا أمام الباب، لم تنتظر زوجتي حتى أنزل الدُزج، كنت بالكاد أناهّب للنزول، لمحتها تُطفئ المصباح الخارجي الوحيد بسرعة وتعلق الباب، وكأنها «رتاحت مِنِّي». أحاول تحريك يدي وأفشل، كفي على الكف الأخرى في وضع الصلاة، مكنتي بشريط أبيض، لما خفتُ صعدتُ باتجاه باب شفتي مرة أخرى، كنتُ قد نزلت درجتين فقط، لا أعرف ماذا شعرتُ بأن بيتي أصبح قديماً وأنا غريب عنه؟ لم أستطع طرق الباب أو رن الجرس، نطحته براسي وحككته بقدمي، فتحتُ زوجتي بسرعة كأنها كانت تنتظر خلف الباب، وعاد لسانها للعمل مجدداً:

«كنتُ أعرف أنك ستعود الآن».

حاولتُ أن أداري فشلي عنها:

«أريدك فقط أن تفكي قيد يدي»

ودون كلام اقتربتُ مِنِّي، فككت الشريط من معصمي وربطته حول خصري، فأصبحتُ كمومياء طازجة. عندما تحررتُ يداي بعد دقائق فقط من ربطهما لم أشعر بحركتهما، كأنني مؤهل لأن أكون بلا دراعين، أحلتُ ذلك الإحساس إلى استعدادي الفطري لأن أصبح ميثاً، لا أشعر بالدراعي، ثم القدمين، وبعد ذلك يتوقف القلب وتغفل الأوعية الدموية ويتجلط الدم، فأحرق في لا شيء، بعيني سمكة ميتة.. ثم، ثم لا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك.

بعد أن أصبحت بقدمين وذراعين تتحرك بحرية ترسّ استرج  
بسرعة لا تتناسب مع ميت، أو حتى عجوز، فأنا في السابعة  
والأربعين، في شرح الشباب الثاني، لا أعرف هل من اللائق أن أموت  
وأنا قادر على الموت، أم الأفضل أن أموت عندما أفقد الصلة بكل  
من حولي؟ ربما كان من الأفضل أن أموت وأنا بصحة جيدة!

أصبحت أسفل البناية في وقت قصير، كانت هناك مشكلة لا  
أعرف كيف سأعالجها، إذ كيف سأمشي كالسهم الأبيض بين الأحياء  
الملوئين، بدأ النهار يُظهر أحجام الناس في الشارع، ثم طلعت شمس  
خفيفة تُبَيِّن ملامحهم، عرفتُ بعض الأشخاص السائرين بالقرب  
منّي، كنتُ أختبئ منهم خلف بوابة البناية، لا أود أن يروني وأنا  
ميت، كما لم أكن أحب أن يروني وأنا حي

توقفتُ آلة الأسئلة في رأسي، بدأ وثاق اللغة ينفرط وتصبح  
الكلمات باردة، لا تؤدي إلى انفعال أو تبادل حديث مع النفس،  
كانتُ نظرتي للشارع مشوّشة، وتحديد أحجام الناس غير دقيق،  
سمعتُ صوتًا بالخارج، لم أخرج، اختبأت وراء لافتة خشبية قديمة  
ومُهملّة، لم أحب أن يراني أحد وأنا بهذه الملابس، انتظرت حتى  
عبرني صاحب الصوت ثم خرجتُ، لكنني قادتُ شخصًا آخر، لم  
يمهلي الفرصة لأختبئ عن متابعته، اقترب منّي، صافحني بحرارة  
وهز يدي مرارًا، لم يُعلّق على ملابسني البيضاء أو هيئتي الجديدة،  
لم يلتفت للأريطة المملوكة بطول حذعي، شدتُ يده وحديثه إلي:  
«ألا يوجد في شيء غريب؟».

يرد الرجل بسرعة:

«يوجد طبعًا. فأنت تلبس حذاء أسود لا يليق بملابسك البيضاء».

أنظرُ لقدمي بالمعل فأجد حدائي لا يليق بي، يُخرج الرجل من كيس كان يحمله حذاءً أبيض حقيقاً كالشمع، ينحني بالقرب مني، يخلع عني حدائي ويضع مكانه حذاءه الشمع، أجده مرة أخرى وأقول له:

«العفو. العفو».

ويرد الرجل بوجه بشوش:

«إكرام الميت تجهيزه جيداً قبل دفنه لابد أن تموت بالطريقة الصحيحة».

الرجل يعرف إذن أنني ميت، لماذا يكشف كل من يقابلي بهذه السهولة حكاية موتي؟ كل من يراي اليوم يعرف ذلك، إلا أنا، لا أصدق أنني مت، حتى الآن أشك في صدق هذه الرواية، بدرت الرجل الذي لا أتذكر اسمه بسؤال:

«وهل ميت أن يتكلم يا عم؟».

يضحك الرجل بصوت عالٍ، يصرب كفًا بكف، ثم يشير بطول ذراعه إلى كل من يسرون حولنا:

«أنت مستجد على الموت. وضعك الجديد يعجب عنك رؤية الحقيقة، وهل يتحدث إلينا إلا الميتون؟ نستمع لحكاياتهم في ماضيهم ولآرائهم في حاضرنا ولمشوراتهم في مستقبلنا، أنت فقط ذاكرتك ضعيفة بسبب حادثة موتك».

يستوقفني كلام الرجل، أتأمل السائرين من حولي، ثم أسأله:

«وهل هؤلاء ميتون أيضاً؟».

يرد الرجل بعد أن ضم حدائي بين يديه:

«هم ميتون. لكنهم في انتظار خروج الروح».

بدأتُ أشعر بالارتياح قليلاً، فقد زال عني إحساسي بالوحدة.

سرتُ في الشارع بثقة أكبر بعد أن تركتُ رهيتي عند بوابه الساية، كلما رأيتُ أحداً يسير إلى جوارِي أشرتُ له، وكان يبادلني التحية دون تعليق، وذلك يعني أن كل مَنْ يسير من حولي يوافقون على وصعي الحالي، لاحظتُ أن جميع السائرين أقرب لنيّمْ، بسبب نظراتهم نصف الواعية ومشيتهم فاقدة الاتجاه.

الجو الصباحي كان يقطر دخاناً أبيض.

تجاورتُ شارعِي، كنتُ أعرف أغلب السائرين، انتقلتُ إلى شارع أكبر غير الذي عشتُ فيه ومثُ، أفضتُ بي الشوارع لمفرعة إلى ساحة كبيرة لم أرها من قبل أرضها صفراء شاحبة، والبس الدين يتجولون فيها براودهم النوم، حتى ظننتُ أنهم فاقدو الوعي قطع أحدهم طريقي وهو متنبه أكثر مما يجب، نظر إلى معصمي بتركيز شديد وقال:

«فيم ستفيدك هذه الساعة؟»

نطرتُ إلى ساعتِي فوجدتها لا تزال في يدي، كما هي على نفس هيئتها ولون «الأستيك» الجلدي الأسود، لكن عقاربها متوقفة عن الدوران، كيف نسيثُ زوحتي أن تحلّعها عن معصمي؟ أعطيتها للرجل بنفس راضية، حَبَلٌ وكاد يطير من الفرحة، ثم غاب في شُبورة الشروق الباردة.

تركتُ منطقتي والمناطق المجاورة، رأيتُ أمامي صحراء ممتدة، مترامية الأطراف دائرية الرقعة، في منتصفها مدقات وحصون رمية مخصصة لعساكر الجيش، ولافتة تقول كلمات تعديرية «ممنوع الاقتراب أو التصوير» كنتُ قريباً منها جداً، بدليل تمكّني من

فراءتها، لكن لم تكن معي كمايوا.

تجاوزت العساكر وغصت في الصحراء، سررت في قلب الرمال حتى شعرت بسحونة الشمس، لوهلة، انتبهت إلى وحدتي الجديدة، في لحظات معيبة كنت أشعر أنني أعرف طريقي جيدًا، وأحيانًا أخرى أراي تائهاً وليس لدي وعي بأي شيء، وتذكرت كلمات روجتي: «أنت ميت منذ مدة طويلة لكنني تحملتك فقط لأنني لا أحب قتل أحد» لم أشعر بصدق كلماتها، ولم أشم رائحة لأي عفن، وأستطيع الآن أن أحرك ذراعي أو أنقل قدمي وأغير موطنها، على حد علمي، لا يستطيع شخص ميت أن يفعل مثل هذه الحركات، بل لا يمكنه مجرد التفكير فيها.

في قسب الصحراء طلع لي رجل كأنه شق الرمال، تمعن في وجهي طويلًا ثم أشار إلى نظارتي:  
«هل لي أن آخذها؟».

ثم أضاف قبل أن أدبر له الرد المناسب:

«لم يعد لها لروم في وجهك الميت».

كلما نسيت وصعي الحديد خرج لي مَنْ يُدْكرني به، عندما خلع الرجل النظارة عن وجهي غامت الرؤية وضاق الأفق، حتى عندما حاولت تتبع الرجل فلم أراه، بدأت أمطار حفيفة ترش الرمال الناعمة. بعد قليل رأيت الرجل الذي أخذ حذائي ومعه الرجل الذي أخذ ساعتني، ومن خلفهما يمشي الرجل الذي سحب نظارتي من وجهي، صنعوا من حولي طوقًا، أخذوا يغنون من أجلي أعاني لا أعرفها، موسيقاهم تتبع من حناجرهم، فمنهم من يصفر ومنهم من يصرخ ومنهم من يشفط الهواء ليواكب الأنغام الأخرى، قال

الرجل الذي يلبس حذائي.

«يا مُغفل. هم قالوا لك أنك ميت كي يهدموا بيتك ويسرقوا كورك».

وأرد عليه بنصف وعي:

«إن بيتي في الصحراء يا عم. والصحراء لا يوجد بها إلا الشمس والرمال!».

قال الرجل وهو يتنسم ابتسامة خبيثة:

«يا بني آدم وهل توجد الكنوز إلا في الصحراء؟!»

اقترب مني الرجل الذي يزين معصمه بساعتي. عادت عقاربها تدور كأني ساعة عادية. قال:

«يا مُعفل. هل يمكن أن يموت شخص وهو واقف على قدميه؟ أنت لم تصل لمرحلة الاحتضار بعد».

ثم انصرف وهو يرقص تحت المطر، اقترب الرجل الذي أخذ نظارتي ووجه كلامه إلي:

«أنت عريب عجيب والله، هل صدقت بهذه السهولة أننا سنبحث لك عن قبر؟. أخذنا كل ما لديك ولم تأخذ أنت شيئاً ورغم ذلك تستأمننا على مكان دفنك. أنت إنسان لقطة والله».

ثم لمحت الرجل الذي لبس حذائي يقترب مني:

«كلماتك لم تعد تناسب الأحياء، وأفكارك أيضاً»

قل ثم أخذ يجعل حذائي ويتعد عني.

كان يتملكني إحساس قوي بأنني أسير في الطريق الصحيح إلى المقبرة، مقبرتي التي اشتريتها بالتقسيط، لكنني لا أعرف الطريق

إليها، لذلك كن لابد من دليل، والآن صار معي ثلاثة أدلاء يحولون  
جدي لأسير معهم، أنا أتذكر قيري جيداً، كان بحواره ثلاث بخلات  
قصار، وشاهد عريض من حشب مدهون بالبويا البيضاء، وهذه  
الصحراء التي أسيرُ فيها هي البوابة التي ستؤدي إلى مقبرتي، لا  
يهمني ما يقوله هؤلاء الأغراب، فقد سرقوا مقتنياتي والآن يريدون  
أن يسرقوا جسدي، لن أعطيهم الفرصة لذلك أبداً

ابتعد الرجال الثلاثة عني، أو بالأدق، أخذوا جانباً وتركوني أسير  
وسط الصحراء دون مصايقتي، مشيت ولم أنظر خلفي، كان همي  
كله مسحوراً في العثور على مقبرتي العزيزة، والتي أقتنعي كل مَنْ  
حولني بأنه حان الوقت كي أدفن فيها، كانت الأرض تصعد بي إلى  
أعلى، والقماش الطويلة التي أرنديها تخرج من تحتي، تتعثر فيهم  
قدمي، تجذبني الرمال أسفل التل، لكنني أواصل الصعود دون كلل،  
كأن مروج الحنة بانتظاري، وبعد معافرة من أجل البقاء ميتاً؛ مرَّ  
نهار كامل ونصف غروب، احتفى الرجال الثلاثة في غلالة بدأت  
تطبق على الصحراء وتغلفها، ووجدت نفسي وحيداً بين كتّبان  
صفراء وسماة محملة برعد وشمس تستحيي أن تشرق.

جدي والدرّاجة



بعد نجاحي في الصف السادس صدق جدي وعده، اصطحسني ودهسا مباشرة لمحل الدراجات، سِرنا لأكثر من نصف ساعة، لم يكتف بشراء الدراجة كي يثبت لي بأن مجموع درجاتي كان أعلى من صموحه، لكنه إمعانًا في الفرحة العارمة حمل الدراجة على كتفه، مشي والعرق يغمر ما ظهر منه وما بطن.

أثناء عودتنا النشيطة باتجاه البيت قابلنا شخصًا لا أعرفه، ولكن بدو من نظرته لجدي أنه يعرفه، سأله:

«يُكِّم هذه الدراجة؟»

نقل جدي حمولته على كتفه الأخرى، أخذ نمسًا عميقًا ثم قال:

«قُل أنت.»

يتعد الرجل عَنَّا، نسمع صوته وقد أوشك تدريجيًا على الاختفاء:

«خمسين؟»

يلف جدي الحادون ليعدل وجهته فوق كتفه:

«صحيح. هي بِهْم.»

ونترك الرجل يغيب في سلام، يتلعه ضجيج الشارع ورحام الناس، أتذكر بأن جدي دفع فيها خمسة وستين حيهب، وأسأله:

«ماذا لم تقل له السعر الحقيقي؟»

بدأت قطرات عرقه تروي الأرض:

«هو لن يبيع ولن يشتري، وجع دماغ وخلاص»

بعد أن سِرنا مسافة قليلة قابلنا شخصًا آخر، كان يبدو من مظهره أنه غريب عن الشارع، وجَّه كلامه لجدي أيضًا:

«بكم اشتريتها يا عم؟».

ويرد جدي كما رد من قبل:

«تَمَنَّا».

«يسعين؟»

تفزع أسارير الملامح المعمورة بالعرق، ويطرد لسانه الطعم

المالح بعيداً عن شفتيه:

«صحيح. هي بَهم».

تكرر هذا السؤال كثيراً طوال مشوارنا القصير، ولا مرة قال أحد

المارة السعر الصحيح، وأيضاً ولا مرة اعترض جدي على السعر المقترح.

بعد قليل أنزل دراجتي من فوق كتفه، طلب مِنِّي أن أركبهم وأخذها لفة، ثم أخذ يرن الجنزير والفرامل بعين حبير، يرن الجرس بشكل متواصل ويخبط الكرسي مرتين كإذن منه بالركوب أثناء ركوبي الدراجة كان جدي يتابع السيارات من حولي، يصف أمامها ويشعر بيديه مثل عسكري مرور، ويسمّ بعض السائقين الغمي إذا لرم الأمر، اصفرّ وجهه قليلاً واختلط عرقه بالتراب. كنت أقود لعتي دات العجلتين ولا أرى إلا اختراقي للأشياء من حولي، رائحة البلاستيك الجديد تملأ أنفي والفرحة تملأ روحي، لم أنرب عنها وأترك الجادون إلا عندهما وقف أمامي عيب في مثل سني، وسألني:

«لليبع؟».

اقترب جدي بسرعة، كان قد سمع السؤال:

«فعلاً لبيع. معك مئة وخمسون جنيها؟».

انصرف الولد دون أن يرد، لكن جدي رد:

«مع أناس كلنا فلوس الآن؟ حاجة تقرف»

يحمل الدراجة على كتفه مرة أخرى كما الوصح الأول، يلتفت إليّ موجهًا بعض الكلمات:

«عارف لو أردنا بيعها بالفعّل. فلن يدفع أحدهم نصف لمتها».

ثم سار بشكل أكثر جديّة، وأسا في كعبه، فقد اقترب البيت حدًا من أقدامنا.

المعفلون والحلاق العجور

## أنا شخصية في قصة

طال شعري فدهمتُ إلى حلاقي العجور، رأيتَه يرفع مقصه في الهواء ويغني «يا واور قل لي رايح على قين».

كان محلّه في الدور الثالث والأخير من الناية. يجلس من قسي ربونان، أثناء الانتظار اهتزّت الأرض من تحت قدمي، رقصت مع الهرة، اعتقدت أنه زلزال خفيف، أقل من خمس درجات بمقياس ريختر، ثم اردادت الهرة فصارت ثمانى درجات، ثم تطور الأمر ورقصت البنية كلها، كانت الشخصيات من حولي تتحرك بشكل مضطرب، لا تلتصق بالأرض كما ألتصق أنا، بل يهتزون وبتلوون، ثم يعودون كما كانوا بمنتهى السهولة.

لا يزال الحلاق يعني «عمال تجري قلبي وبصري تنزل وادي تطوع كوبري»، المقص في يده ثابت لا يرتعش مثل الأرض والجدران، لم ألحظ أي توتر أو اهتمام من الزبوين المنتظرين، بل كانا يتحدثان حول أمور الحياة اليومية وهما يتمايلان، تلعب من حولهما الأشياء، وسألت أحدهما:

«هل سنجري؟».

ويرد الرجل الأربعيني الذي كان يمسك بالجريدة ويحل الكلمات المتقاطعة

«ولماذا نجري؟ لو جاء دورنا فلن يكون في استطاعتنا التأخر».

ثم يدمج أكثر في جريدته، ويسأل الشاب الجالس إلى جواره:

«رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم؟»

كان الشاب مشغلاً بالبحث عن أرقام في الموبايل، لا يعا هو

الآخر باهتزاز الأرض من تحت قدميه، استجمعتُ شجاعتي وسألت:  
«لماذا لا نجري؟ يمكننا النزول قبل الانهيار»

فردّ وهو لا يزال قابضاً على الموبايل:

«نجري من ماذا. ونجري لماذا؟ أعتقد أننا لن نجري شيئاً  
جديداً».

ثم ضحك بصوت عالٍ دون سبب واضح، على الأقل بالنسبة لي.  
أثناء اهتزاز الأرض تحت أقدامنا؛ كان الحلاق العجوز يرن بعينيه  
رأس الرجل الجالس أمامه على الكرسي، يساوي شعرة زائدة، بعد  
قليل أخذ يتأمل عقاس الحاجبين، يتمايل ويتقصّع بشكل لا يناسب  
سنّه، يخرج صوته بطيئاً «يا وابور.. يا وابور» مقصّه يقطع  
بشكل منتظم وهو بعيد عن رأس الزبون.

عاد اهتزاز الأرض من تحت قدمي يشغلي من جديد، والرجل  
الأربعيني الممسك بالجريدة لا يزال يبحث عن رئيس وزراء ماي  
سنة 86، والرقم الذي يبحث عنه الشاب الممسك بالموبايل لم يحد  
حتى الآن، والحلاق العجوز يقطع مقصّه ويخلق الهواء.

تركهم جميعاً وجريت، لم أنتظر المصعد، قفزت متجاوزاً السلام  
زوحية وثلاثية حتى أصبحت في الشارع. رغم الخوف، لم يمنعني  
الفضول من النظر خلفي، كانت البناية تهتز بقوة، ثوانٍ قليلة  
مرّت ثم بدأ الدخان يتصاعد، وسمعتُ أصواتاً عالية تختلط  
بصرخات مكتومة ورحة تهز الأرض تحت قدمي، خفتُ من النظر  
خلفي مرة أخرى، ظلّ الدخان يعلو حتى غانق السماء، اجتاحتني  
أحاسيس متضاربة.

لكن بعد أن سكن المصراخ وهدأ الغبار سمعتُ صوتاً:

«أنت شخصية مزيفة. هل هناك شخصية حقيقية تهرب بهذا الشكر المخزي؟».

كان صوت العلاق العجوز والكلمات تغلثها طقطقة مقصه الرتيبة، ثم صوت ضعيف «ما تقول يا وابور رايح على فين». استفزني الصوت، فأنا لم أتغثيل نفسي أبدًا شخصية مزيفة، استدرت للخلف فوجدت البناية لا تزال منتصبة، عاد الزمن قليلاً للوراء، فعاد العبار إلى مكوناته الأولى تحت دهان الحدران وبلاطات الأرضية، تكوّنت البناية من أبقاصها كما كانت قبل نصف ساعة، فعدت إلى حيث جئت دون إرادة كاملة مني، صعدت السلم، ورأيت مرة أخرى الرجل الأربعيني الذي أمسك بالجريدة وبحث عن اسم رئيس وزراء مالي سنة 86، ولكنني عرفت عنه هذه المرأة بعض معومات إضافية، لم يكن الرجل نافعاً بضيق وقته كما كنت أظن في المرة السابقة، عندما مُنِحت حياة ثانية اكتشفت تفاصيل أخرى لم أكن أعرفها، فقد أصيبت زوجته بمرض لا شفاء منه، ثم ماتت وتركت له أولادًا وبناتًا، وأصبح يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، ويُسرّي عن نفسه محل الكلمات المتقاطعة في الحمام وعند الحلاق. والشاب الذي يجلس إلى حواره لم يكن نافعاً ويتعجب في الموبايل، لكنه كان يساعد الرجل الأربعيني، على محرك البحث «جوجل» نقر حرف الميم، حاول أن يقرأ الاسم الصعب لرئيس وزراء مالي سنة 86.

بدأت الساية في الاهتزاز مرة أخرى، تمامًا كما حدث من قبل، وفكرت في الهرب من حديد، ثميت لو خرجت من المشهد، لكني لا أعرف لماذا لم أهرب، فمصر الشخصيات الحقيقية أمثالي لا بد أن يكون واصحًا، الترميت بالدور الذي كان عليّ أن ألعنه، شخصيتي

الحقيقية المفترض وجودها في القصة، فأنا لأبد أن أموت الآن، مر من حياتي أربعون عاما، فعلتُ فيها كل ما يمكن أن يفعله إنسان وكل ما أستطيع التخطيط له في السنوات القادمة؛ لن يخرج عن كونه تكرارًا رتيبًا لأشياء فعلتها من قبل.

تأكدت الآن من أنني شخصية حقيقية، لكنها شخصية عابرة في قصة تكررت ملايين المرات. عندما تملكني ذلك الإحساس استسلمتُ، جلستُ بحوار الرجل الأربعيني أبحث معه عن رئيس وزراء مالي سنة 86، والشاب لا يزال يحاول قراءة الاسم الصعب فوق شاشة الموبايل، والملصق الذي عسك به العجوز يقطعق دور داعٍ، لم أعد أهتم بالأرض التي تهتز تحت قدمي، أخذتُ أذهب، وأصبحتُ صوتين «رايح على فين، ما تقول يا وابور».

لكن الناية لم تقع، فقط رقصتُ وبعدها استقر الحال، ثم سمعتُ صوتًا يجاهد كي يصل إلينا، بطق بالاسم الذي كنا جميعا نبحث عنه، رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم «مامادو دميلي».



الشجرة وما تحتها

«عشتُ معك ستين عامًا، ولكنني لم أعش فيك إلا دقائق، وربما لم أعش أبدًا».

قال الرجل العجوز وهو يبكي، ولبكاء العجائز شكل البيت الأيل للسقوط، أشفق عليه بعض المارة، بالكلمات تارة، وبمحاولة النهوض به تارة أخرى، لكنه لم يبرح مكانه، ينظر إلى بصمة قدميه ويربت على التراب، يحدق بوسع ما أمكنه من رؤية، لا يمسخ دموعه، تثرر فوق جلد كفه وتدبغه، ينجي ورق الشجر والعصف الهائش تحت قدميه

«ماذا لم أنظر طيلة المدة في عيبك؟»

من حوله جاءته بعض العطايا، رجالات مياه وساندويتشات، غلب مناديل وعصائر، لم يرفضها ولم يقبلها، ركنها بجوار قدميه كما هي، كان المارة وكأنهم معتادون على ذلك المشهد في وقت معين من كل عام، يبدو ذلك من تجنب إلقاء الأسئلة عليه، وكذلك بسبب ما يقدمونه له، لكن الرجل لم يكر متفاعلاً مع جمهوره لصغير الذي صنع سياجاً محدوداً من حوله، كان من السهل معرفة أنه يعيش في عالم ليس له وجود، كيانه كله هناك، بجوار رأسه، وجسده هنا فقط كي لا يعامله الناس على أنه عفريت من الجن، لكنه حسد سلمي وبارد، لدرجة أن قياس الحرارة عند العنق لا يبد سيحتف كلئياً عنه عند الكتف، رأسه يحيا على أنقاض جذعه وبعض ذكريات قديمة، لم تعد تصرفاته وكلماته الدافئة في حساب أحد، لدرجة أن الناس لم تعد تشغلهم نوعية ذلك العالم الذي يسرح فيه، بل يكتفون فقط بمعرفة أنه يسرح في عالم بعيد عنهم يقوم مثل قرد كبير هذته السنون وشغطت منه كل نشاط

ممكّن، منحني وله قتب واضح لا تغطئه عين، يتحرك من مكانه  
بثقل صدع مربوط بأصفاذ، يحرك قدمه قليلاً ثم يعيدها إلى  
المكان نفسه، تنقص أوراق الأشجار الجافة تحت قدميه، وكمر  
ته منه شيء، منذ زمن بعيد يلف حول الشجرة ببطء، يلمس  
لحاءها ويستند إلى أحد الفروع، ثم يعود من جديد لكلماته التي  
لا يفهمها مَنْ حوله:

«لو عدت ليوم واحد أه سوف أنظر في عيبك حتى يوم الدين  
ليفضيا لي بالأمرار».

مر شخص يقاربه في العمر، يوحه كلماته إليه من بعيد قل أن  
يقبل على الجمهور الصغير:

«لقد نقلوا كل شيء منذ خمس سنوات، هناك عند أطراف  
المدينة. ونقلوا معه ما تريد. لم يعد أحد هنا».

يقول توضيحه السريع ثم يمضي لحاله. لا تبدو على العجور  
علامات سماع الرجل العابر، لكنه يكمل ما بدأه:

«يا كلكم، ليتكم تتعظون. تنظرون في أعينهن مباشرة. كسهام  
الصيد. فرما تكون المرة الأخيرة التي فيها تُبصرون».

كان الجمهور الصغير قد ازداد في العدد، أصبحوا حوالي عشرين،  
لكنهم غير ثابتين، فيصرف أشخاص ويأتي غيرهم، كأنهم اتفقوا  
بشكل غير معلن على أنهم يظلون عشرين، لا يزيدون ولا ينقصون.  
عندما خارت قواه وأصعبت الجلبة أعلى من قدرات أحباله  
الصوتية صمت، أو بالأدق صمت لسانه فقط ولم تصمت محتاجاته  
الداخلية وتعبيرات ملامحه. ربما ازدادت حدة عندما همد لسانه  
عن الحركة، قام وهو يحمل الشنطة الكبيرة المملوءة بهدايا المارة

لطيبين، أمسك بأرغفة العينو المحشوة بالرومي والبسطة وفركها  
في الأرض، أخذ بنثر فتاتها وهو يسير ببطة.  
«وربما أنت الآن جائعة».

ثم علق زجاجة المياه في حل وربطها في حدة الشجرة، استل  
دبوساً وثقب الزحاجة من قعرها، وخزها أكثر من مرة فخرت  
قطرات منتظمة غاصت تحت أوراق الأشجار الجافة.  
«وربما أنت الآن عطشانة».

ترك الزحاجة تفرغ ما فيها ببطء وانتعد قليلاً، ثم تاه وسط  
الناس وكأنه واحد منهم، حتى أنهم عندما سألوه لم يرد، كان  
يكتفي بهز رأسه على كل كلامهم، مشى بعيداً ولم ينظر حقه ولا  
مرة واحدة.

النُّطفة وروحها

قل أن يُشق لي محجران وأرى، وقل أن أعرف شكل الحروف،  
رايت ناس وأحداثاً ما زلت أبحث عن مكان لقائهم الأول، أطفالاً  
نبئت لهم ذيول بين سيقانهم، ونفرت لهم حياشيم تغلق نصف  
فتحة الفم، فأصبحوا بذلك لا يغشون الأمواج ولا الأعماق ولا  
الارتفاعات، فقد نبئت لهم، في مراحل لاحقة، أحنحة عند الخصر  
تستطيع جعل الواحد منهم لما فوق السحاب بقليل، أما الرجال  
فكأوا بثلاثة أقدام، ظلت القدم الوسطى تكمش وتتنازل عن  
عظامها حتى أصبحت في حمم إبهام، ثم بدأ ينمو حولها شعر  
غزير دون أن يكسوها، على عكس القدمين الأخريين

كان هاك أيضاً ساء يرقدن على أجنابهن في انتظار أبنائهن،  
انترعت إحداهن صدوقي الشمعي من صناديق لافتة ومثيرة،  
ألوان كثيرة كنت أراها، لم يعد لها أي وجود الآن، النظر المحدود  
لعيني أحاط بما يجب علي رؤيته، أفتحهما على آخر اتساع، لا  
فائدة، فالطريق الطويل لعملية الانسراع بأخذ الكثير من متعة  
الروح، أين الأسد المستكين الذي يمشي على ستة أقدام وهو يتأمل  
حمم الغزالة المترهل وخطوتها البطيئة؟ أين ذهبت السلحفاة التي  
تطير وهي تتنازل عن مئات السنين من عمرها؟ والأرنب الذي  
يسير ببطء تائهاً كالمثفي في الأرض، أشجار كثيرة تتحرك باتجاه نهر  
طويل بأوراقها ولما رها، تذهب للحيوانات في المراعي، تتوقف عند  
فمها الكبير الذي يقسم الرأس لرأسين.

رايت رجلاً عجوزاً ومنكمشاً يسير بجوار البهائم وهو يصرخ  
«البرسيم يأكل البهائم. البرسيم يأكل البهائم» اقترب منه عجوز  
آخر حتى يتبين الأمر، وكعادة العجائز لا يلحقون شيئاً. كانت

البهائم ماثلة على جنبها وبافقة، وعرف العجوز الأول أن الرسيم كان مسموماً.

كان هناك في وعيي الذي لم تسمح ظروف ما باكتمال تشكيله كوبري صغير يشبه رلاجات الأطفال، له سطح فضي، يرسو في ميدان كبير بمثابة الرحم الملائ بالأطفال دوفاً، ينزلق الطفل وهو يلهو، يلبس الكافولة ويهرش فيما بين فخديه، يلتقطه أحد الأنوين ويذهبان، يأتي غيرهما فيلتقطان طفلاً آخر... وهكذا، المعدة والقصبة الهوائية لم تُحلقا بعد، كان في البطن طبقتان أسطوانيتان، واحد عند الصدر والآخر عند البطن، واحد كالماجور مهمته تطعيم الهواء، عندما يفرغ ينام صاحبه، أما الآخر فهو للطعام والشراب، عندما يُملأ يجري الموعوك إلى الغلاء.

بدأت الأحساد تشق طريقها لمعرفة الروح، كل روح تلبس الحسد المناسب، كانت هذه العملية هي الأشد خطورة في كل المراحل، فهناك بعض الأرواح التي سكنت أشعفاً عن طريق الخطأ، ظلت هذه الأرواح البائسة تتحرك وتتلوى داخل أجسادها الضيقة؛ حتى يصل صاحبهما المسكين لشيء من اثنين، إما اللامبالاة والتغاضي عن كل ما يشعر به إدعائاً للقوانين الجديدة، وإما الجنون الذي عاباً ما كان يصادف الأرواح الحرة الشريفة، كانت عملية التوزيع غالباً غير عادلة.

فمن أكثر المشاهد التي كنت أراها ولا أتذكر ملامح أشخاصها ولا تفاصيل مكان حدوثها، عندما رأيت رجلاً عجوزاً يضاجع عزته بعد أن يلهيها بعبدان الرسيم، دخل عليه شيخ صالح ورآه على هذا الوضع، فما كان إلا أن نهره على فعلته ولم تهدأ ثورته إلا عندما استتابه.. وندمت.. وعزمت.. أكيداً.. ألا أعود.. أنداً.. أنداً.. «إن لم

ترتدع عن فعلك هذا سأكون أول من يبلغ زوجتك الصميلة»، قال الشيخ الصالح ثم انصرف، أخذ يدق عصاه فوق الأرض بشكر تمثيلي، يخفف وقع العصا وكأنها تبتعد به عن المكان، خذع صاحب العنزة وأوهمه أنه انصرف، وعندما تلصص عليه من ثقب الباب وجده قد عاد مرة أخرى لما نهاه عنه، فما كان منه إلا أن دفع الباب وأمطره بوابل من أقذع الشتائم، أخذ يضربه بالعصا ويركله، والمسكين لا يقوى على الرد، ولكنه يقوى فقط على الدفاع عن نفسه بدراعيه، صرح الشيخ حتى جاءت روحه للرحل ورأته على هذه الحال، توسعت الدائرة حتى أصبح المشهد يصم أهل البلدة جميعاً، وقمت الدواب وهي تنظر لصاحب العنزة على أنه بطل، يريد أن يُعسّن السلالة بمولود تصفه من البشر وبصفه من الغنم، خطوة على طريق عودة بعض الحقوق لأصحابها، كانت زوجته وأولاده والشيخ يرويه رجلاً نجساً، لا يستحق سوى الشنق في ميدان عام، كيف يترك زوجته الجميلة التي يغازلها الرجال في كل خطوة، وينظر لعنزة؟ أما آراء أهالي البلدة الكثيرين فقد كانت مثلهم كثيرة ولا مجال هنا لذكرها، لكن يمكنني أن أقص كيف عاقبوه.

وقف الرجل في قفص من حديد، الناس المعطرون الذين يلبسون الوشاحات يتلون عليه رأيهم في المسألة، سيسجن خمس سنوات، تقبل الرجل الحكم بصبر وعدم انزعاج، فقد كان يعرف تمام المعرفة أن روحه بها خلل، لكن عقله سليم ومتمزّن وهو غير نادم على ما فعل، إنما يدم على نظرات الناس الذين لا يفهمون طبيعة روحه، كان يعرف أن من حكموا عليه إنما تستقر أرواحهم بين صلوعهم في سكية وراحة بال، وأنهم راضون عما يفعلونه، مثله غاماً، فهو



أبصار راض عما فعلته، ولا يرى تعارضاً سوى في إيهاءات الناس الذين لم يتيبوهوا إطلاقاً لهذا الغلغل الذي أصابه قبل أن يستقبل روحه قبل أن يدخل هذا الكيان الشفاف إلى الجسد يكون نقياً، مهما إلى حد ما، المفاحآت لا تعرف بالطبع أنها مفاجآت، تسارعت عند هذه النقطة روحان وولجتا كياناً واحداً، كاد التسارع يقتك بالجسد البائس، كان في ذلك الجسد مسام شمعية يمكن ولوج أكثر من روح عن طريقها، والأرواح مابحة في بحور مظلمة وبعيدة كاشاح لم يستدعها أحد، تصارعت الروحان في جسد المسكين، حاول أن يستأنسهما، كي يصحبا كيانين ساذجين ففشل، حاول أن يثنيهما عن التساؤلات التي يتوصلان إليها فلم يستطع، تريد كل واحدة أن تثبت أنها على حق في عرض بعض مسلماتها، تتدخل الروحان في كل كبيرة وصغيرة للجسد الشمعي الضعيف، حاول المسكين أن يضع حدوداً وحدول صارمة للتعامل معهما فعانه جهده المتواضع، تعددت المسارات بعد ذلك ليس عن طريق البراءة ولا عن طريق الذنوب لكن عن طريق التضارب، تنغرس الروح الشفافة الكبيرة خارج الجسد، يتم الإفراج القسري عن كيانها السحابي الهائم، يحدث ذلك غالباً بمساعدة طائشة أو صديق خائن أو سائق أعمى رشقت حافله في قاع نهر.

الموت وسبابة الموت

أشترى الفاكهة بعد كل صلاة جمعة من سيدة عجوز، امرأة  
قعيدة تجلس خلف أقفاصها لكثرة ما رايتها جالسة لم تحيل لها  
سائقين، قالت لي وأنا أتسوق الفاكهة بعيني:  
«لم تأت الأسبوع الماضي!».

«آه».

لم ألتفت لسؤالها بوعي كامل، كنت أنظر إلى أنواع الفاكهة  
لأحدد ما سأشتريه، أمارن بين سبابة الموز الصفراء وأقفص العنب  
المرصوصة. يهتز جذعها، تقول:  
«أشرف تعيش أنت».

أتوقف عن التفكير في نوع الفاكهة التي أريدها، تمرل عيني من  
فوق سبابة الموز، أنشغل بجملتها الاعتراضية، وأخمن بأن أشرف  
هذا هو ابنها.

«سعة وأربعون سنة، وأربعة عيال».

لا أحد ردًا على كلامها، فأنا لا أعرف أشرف، أنا أعرفها هي بالكد،  
ولو أنني قابلتها في مكان آخر غير فرشة الفاكهة فلن أتعرف  
عليها، أحاول أن أندي تعاطفًا معها، أهز رأسي بأسى، أنتظرها حتى  
تنهي كلامها وتتبعه زفرات حزينة وصمت، تتوقف عيني عن مرز  
البرقوق، وأأمل سبابة الموز مرة أخرى:

«أصابه المرض البطل».

وأخمن بأنها تقصد السرطان.

«لم يكمل ستة أشهر».

«آه. ربنا له في ذلك حِكم طبعاً».

تتمتع عيها وتترقرق بظبقة دمع شقافة، تغم، تتابع شريطاً قريباً من الأحداث، يمر أمامها ولا أراه، تركّز بصتها على فرش الطماطم المقابل لفاكهتها، لا يبدو على ثبات نظرتها أنها ترى الطماطم أو بائعها الذي يصحب بصوت منغم. تمد يدها كالمسحورة إلى مشة الذباب، تضرب بها مرتين فوق العنب، يهيج الحبل الكبير وبعض هوام، تتوقف أمامها سيارة نصف نقل، يسألها السائق:

«كم قفص يا أم أشرف؟».

وتفريق فجأة، تهر رأسها برعشة، كمن يتم سحبها من بقايا حلم رقيق،

«خمسة».

ينط صبي صغير كقرد فوق صندوق السيارة، ينزل أقفاص العنب، ثم يتكوّم مرة أخرى بين البضاعة:

«كان أشرف هو الذي يشتري لي البضاعة من سوق العبور».

«آه».

«أحلى بضاعة».

«فعلاً أكيد كانت بضاعة حمرة!»

تزداد صربات المنتشة، على العنب بالذات.

«ماذا ستأخذ؟».

أتأمل سباطة للموز التي لم تترك خيالي منذ مجيئي، أنتقي الجرة الذي راق لعيني، تمد يدها على العمود الأصفر الكبير وتلقفه في الهواء كذبيحة صغيرة:

«كم كيلو؟».

«ثلاثة».

تضرب المنجل في السباطة وهي جالسة، تتلقى بيدها الأخرى  
الجرء الملقطوع، تضعه في الميزان الذي لم يطب، تُضيف إصبعين  
فرط من كومة صغيرة بجوارها حتى يكتمل الوزن:

«هل أزن لك شيئًا آخر؟».

«الثنين عنب».

لم يكن ما يشغلها قد غاب نهائيًا عن خيالها، تحكمت بقاياها  
في بطرتها الباهتة للعنب وهي تُعَبِّئُه، توقفت يدها عن سحب  
العناقيد ووضعتها في كمة الميران:

«آخر مرة أشرف هو الذي اشترى لي فيها العنب كان أحلى من  
هذا بكثير».

«فعلا».

«ربنا اختاره يوم خمسة وعشرين رمضان، قبل ليلة القدر  
ببومين، أيام مباركة».

«أكيد».

لم أكن متدرتًا جيدًا على رد كلمات المواساة، أبدو خائبا في مثل  
هذه المناسبات التي تحتاج إلى ملاحقة المتحدث بحُمل معينة.

بعد أن وزنث العنب وضعته في شنطة، ثم ناولتني الشنطتين  
وابتسمت، أمسكت بالمنشأة، هاج الذباب النشيط، طارت النحللات  
الكيرة وأحاطت برأسها من جديد.

الخييئة والليل

في المكان نفسه من كل عام يقوم بحرق قش الأرز، تكوَّبت من حراء ذلك حفرة في حجم غرفة صغيرة، عاطسة بما يكفي لدفن خمسة أشخاص، حسس على حافتها يتأمل شيئاً ما يبرق أمامه، كان الجوّ ليلاً، تلمع في السماء نجوم، والقمر يضيء التراب فيتحوّل لما يشبه سابل قمح ذهبية، مدّ يده متوجّساً، رفع يده الأخرى في الهواء تحسناً لأية مفاجأة، لم تحدث مفاجآت، سحب يده وأصابعه تقص على شيء ما أشبه بضرة، لكنها ليست كذلك، فالضرة من ملابس أو حرق، أم الكرز الذي كان من نصيبه فمعطى بعلالة صوفيّة هشة كالزغب، حولها شجيرات صغيرة كقرسيّط وليد، ومعطاة بأسنّة ليست جارحة، الأسنّة قرابية اللون تشويهاً حُمْرة، تظهر عنها أَسنان ذهبية براقّة، هي تعديداً ما جدبت انتباهه، لم يصرك عينه عن شعاعها الغلاب مدّ رآها، الضرة في حجم رأس ثور، ولكنها مستديرة وغلافها يشبه الفطر، سحبها ومشعره متضربة، فرحة تشويهاً رهمة، انتصار، اختصاص سماوي بهبة كبيرة.

جذب الضرة، رفعها وأخذ يتأملها كمن يناحها أن تفصح عن سرها. كانت حفيفة بشكل لا يتناسب مع مظهرها الضخم، حملها على كتفه ممسكاً فيها بكل ما أوتي من عزم. ولكنه تذكر عيون الناس «لا يترك أحد أحداً في حاله»، قال مخاطباً نفسه بصوت غير مسموع، لم تستمر مناحاته طويلاً، خلع جلبابه ومن بعده صدريته، ثم خلع قميصه الدلّان ولف فيه كرز الذي احتضنته به السماء دوناً عن كل خلق الله، ثم لبس مرة أخرى صدريته وجلبابه ومشى يشق الطريق.

في الليل، القرية كلها نائمة كما لو كان سكانها أمواتاً، يمر على

البيوت وكأنها قبور، لا يسمع سوى هسيس وقرقعات خفيفة وبعض نقيق تعودته من كثرة ما سمع فأصبح كعدمه. وصل إلى بيته القريب فكوم بعض ملابس في دولابه وأصافها لأخرى بجوارها، اخترع مكانا فوريا لكنزه، ثم وضعه برفق فوق أعلى رف، ثم نام، ليس نومًا كالذي تعودته في الليالي السابقة، ولكنه نوم من ذلك الذي يجهد صاحبه أكثر مما يريحه، لم يشعر بوجود زوجته جواره، ولا ولديه الطفلين النائمين.

أيقظته في الصباح ألم في بطنه، دخل الحمام وخلع جلبانه وصدريته، لمح بقعًا حمراء داكنة عند أعلى صدره، لمسها بإصبعه فشعر بالألم مضاعفًا، بقعًا كبقايا عنب ملطوع فوق نصفه الأعلى، وبعد الخصر حتى القدمين بقع أخرى تتشكل، صفراء لم تتأكد بعد، خرج من الحمام يغالب الألم ويتسند إلى الجدران.

زوجته نائمة، وأبناؤه أيضًا، تحفل الأم عندما تدثر الكثر، خيثة الأمس، اقترب من الدولاب الذي يحتويها، فتح اللقافة، اطمأن لوحود كنزه كما هو، لم يسرقه أحد، ولم يلمحه عابر بالأمس، وبذلك، إمكانية تعرضه للحسد ستصبح صفرًا، هذا أكثر ما يشعنه، ألا يعرف أي مخلوق أن في بيته كنزًا.

استيقظت زوجته على الألم بنفسه، وأبناؤه، الجميع يسكون صدورهم وبطونهم، تذهب الأم إلى الحمام، وترى البقع الحمراء تحت ثديها، والبقع الصفراء عند خصرها، تخرج وهي تمسد صدرها بكفها، تحكه بشدة، يصرخ طفلها، يجذب أحدهما ملابسه بعيدًا عن صدره، ويكي الآخر والنعاس يغلق عينيه، ويسأل هو نفسه: ما الذي حدث ليلة أمس؟ لم يره أحد وهو يحمل الكثر، فقد حبّاه حيدًا، وتجنب عيون الناس، ثرى، من ذا الذي حسده



وَحُمِّنْ وَجُودَ الْكَنْزِ مَعَهُ؟!

الولد واليهلوان

كان يحوب الشوارع بحثًا عن الرزق، يلبس ملابس مزركية ويرسم انتسامة وهمية فوق ملامحه الشاردة، عندما لم يجد أحدًا يعطيه شئًا يوحد ربما ظل يمشي حتى رأى من بعيد مسجدًا، دخل ليتوضأ ويصلي؛ ربما يفتحها الله عليه ويجد أحد العابرين يعطيه شئًا، وعندما بدأ في الوضوء اختلطت الألوان على وجهه، وظهر بقوة اللون الأبيض مع الأحمر، وجهه يكاد يخلو من الملامح، لكنه قُشع وقُضي.

عندما بدأ في الركعة الأولى كان يُصلي وحده، وفي الركعة الثانية وقف من خلفه خمسة رجال، وقبل انتهاء الصلاة مباشرة أصبح وراءه عشرون رجلًا، انتهى البهلوان من الصلاة، لكنه شعر نصيق لا يعرف له سببًا، ربما حزن لألعابه الحرة قبل أن يخرج من المسجد، فقدم وقدم لجمهور المصلين بعض فقراته، قفز وتزلج على الأعمدة الرخامية، تعلق بمروحة السقف كقرد يقفز بين الأغصان، وهنا انقسم المصلون في المسجد إلى فريقين، فريق يتفرج ولا يريد لفقرات البهلوان أن تنتهي، والفريق الآخر يرى أن ما يحدث في بيت ربنا حرام ولأنه من طرده، استمع البهلوان للكلمات الفريق المعترض وقال لنفسه:

«حتى بيت الله سيطردوني منه؟ أنا لا أجيد الصلاة، وأحظني في قراءة الفاتحة، ولكنني أجيد عمل البهلوان ويمكنني إعطاء دروس فيه».

أمسكه خادم المسجد من قماء ومشي به في اتجاه الخروج، قال له:

«هذا الذي تفعله ينفع هُناك في السيرك. أما هُنا فلا يوجد إلا

الصلاة وقراءة القرآن يا كافر».

لم يعصب البهلوان من طرده بهذا الشكل المهين بقدر غضبه من وصفه بال«كافر». خرج حزينا يجوب الشوارع حتى قابل طفلا صغيرا لا يملك من النقود شيئا، ولكنه برغم ذلك يملك فضولا قويا، فقال للبهلوان:

«أريدك أن تعلمني كيف تقفز دون أن تقع».

رد البهلوان على الطفل:

«وأنا أريدك أن تعلمني كيف أرضي ذلك الشيخ لواقف هُناك. اتفقنا؟».

فقال الطفل:

«اتفقنا»

ظل البهلوان يُعلم الطفل الألعاب لثلاثة أيام، والولد يُحفظ البهلوان القرآن ويعلمه أصول الوضوء وعدد الركعات في كل صلاة، في اليوم الرابع كان كل منهما قد أتقن ما علمه الآخر إياه، ثم ذهب إلى المسجد، صلى البهلوان وجلس يقرأ القرآن، وصلى الطفل ثم أخذ يقفز بين مراوح السقف ليُجرب ما تعلمه، ولكن حادم المسجد لم يتعرض للطفل باللوم، فاقترَب البهلوان منه وسأله: «لماذا لم تنهر الطفل مثلما فعلت معي منذ أربعة أيام؟» فرد عليه: «هذا طفل لا يؤاخذ فيما يفعل. بالإضافة إلى أنه انني، ولكن قل لي من علمك قراءة القرآن بهذا الصوت الجميل؟» فقال البهلوان: «ابنك»، فرد حادم المسجد:

«ما شاء الله»

رددتها ثلاثا، ثم أشار لابنه الطفل فأتى مسرعا وهو يقفز ويلف

حول الأعمدة الرخامية، فسأله أبوه:

«ومر الذي علمك أن تقفز هكذا مثل الشياطين؟»

فأشار الطفل إلى البهلوان، انتفض الأب حاداً المسحود وأمسك بالبهلوان من قفاه مرة أخرى وسار به في اتجاه الخروج، ثم قال له

«اخرج من بيت الله يا كافر».

خرج البهلوان، وأثناء سيره قابل طفلاً آخر يمسك بآبٍ في يده، فقال للبهلوان.

«علمني كيف أقفز مثلك دون أن أقع».

فقال له البهلوان.

«وأنت علمني بفتح الهواء في الناي، ليتني أعرف كيف تخرج من بين ثقبه الأنغام».

أخذ البهلوان يعلم الطفل حركاته وقفراته، والطفل يُعلمه العرف على الناي جلس البهلوان على حجر، يفتح في لسانه ويتفرج عني الطفل وهو يقفز، ولكنه لم يتعد كثيراً عن محيط المسجد

الرائع وخياله

## «فووول»

حماري الوحيد، يا صديقي الجميل، أنت لن تفق علي، أنا متأكد من ذلك، فالثقة أشد من القتل، القتل، هه، لقد اقتربنا من الموضوع يا حماري، المهم ألا تنقل ما سأقوله لربائني الملعونين، ليس لأبك تعرف تلك اليد التي تقدم لك البرسيم مرتين في اليوم، فأنت تُخلص لأي يد سواء عتمد إليك بالبرسيم أو بالعصا، أنت لا تبالي؛ كالعاشق عندما يحب الديا كلها، فلا يهتم من يكرهه أو يسخر منه.

سمع يا حماري، هناك أمر جديد أريد أن أحكيه لك.

هؤلاء الربائن الذين أناديهم بأسماء مستعارة، مثل «يا باشا»، أو «يا هاسم»، أو «يا حبيب قلبي» كل هذه الألقاب إن هي إلا أسماء تعلمتها من قسوة الأيام، سماها لهم من قلنا، وأنا أقولهم من أجل راحة دماغي ليس إلا، لكني في الفترة الأخيرة راحعت نفسي، أي باشا هذا الذي بعسي في يره كلما أحد كيس فول؟ يرفع عقده بين أصبعه ويرمقه من فوق تحت، يظن أنني أسرقه؟ وأي هاسم تلك النديسة التي تفوح رائحة ملابها بتي لا يحتاج لحاسة شم قوية كي تكتشفه، وأي حبيب قلبي ذلك الولد الذي يهرول إلي دون سروال والذباب ملموم حول رأسه كالذوامة؟

في ابدية، قلت في نفسي إنني سأعجب التلغظ بمثل هذه الألقاب بعد ذلك، سأنادي الرجل باسمه، محمد أو جرحس أو عدا حسيم، وأنادي المرأة باسمها، نادية أو شربات أو أم الحير، أما العيل، فسأكتفي بأن أقول لهم «يا بابا» أو «يا قمورة» لكن لم يطاوعني نسائي، أنعرف لماذا يا حماري المخلص؟ لأسبي ولدت

فوجدت الدنيا جاهزة لاستقبالي وفيها مكاني بالضبط: ما سأعمله،  
ومر سأتزوجها، وأيضاً ما سوف أقوله وما سيُقال لي، ما سأعيشه  
وما سأموته.. كل ذلك سبقني إلى هنا، إلى هذه الأرض، لم ينقص  
فقط إلا مهيتي عندما استوت تلك الأشياء وتربعت في انتظاري  
جنثاً أنا، لم يمكنني تغيير ما هو قائم للحق، كانت هناك مساحة  
لا تتعدى واحداً بالمنة، هي مساحة الحرية المتروكة لي، لم تكن  
مخصصة لاختيار مهيتي، ولكنها تتمثل في اختيار الموقف الذي أطهو  
فيه قدرتي، أو الشوارع التي أطوف بها، أو اختيار وجهة الغدا،  
تماماً كطفل يختار بين ثديي أمه، بين أم شمال، فقط بين شمال،  
لكنه لا يستطيع تغيير الأم نفسها، هذه الاختيارات حرة تحيط بها  
أسوار، محدودة جداً وليس لها أبداً طعم الحرية.

ما العديد؟ حتى الآن وأنا أحدثك بما أقوله لك كل صاح تقريباً،  
ثم أعق صفارتي في رقبتني، أنفخ فيها وأصيح.  
«فووول»..

لكنني الآن يا حماري العرير دبرت شيئاً، لا تقل لأحد، أعرف  
أنك مخلص لأنك لا تتكلم، أما لو تكلمت فسوف تساومني على  
سكوتك، أشكر الله العرير القدير على أنك مخلوق أحرس حتى  
يوم الدين، وذلك لحسن حظي، لذلك سأكلمك وأنا مطمئن، اسمع،  
لقد نويت اليوم أن أصح سماً في قدرتي لربائسي، هؤلاء الحمقى  
الدين يصدقون أنهم بهوات وباشوات وهوانم، لقد سئمت منهم  
جميعاً، لم يعد لي صبر على تحمل نرقهم وجلافتهم وقذارة رائحتهم  
في جيوبهم رزقي؟ نعم، لكنني مللت من هذا الريح الثقيل،  
فهل يُعقل يا حماري أن أطوف الشوارع والأرقة كل يوم من  
الفجر وحتى أذان العصر ولا أستطيع شراء حذاء، منذ سنة وأنا



لا أستطيع شراءه، ودوائي أيضًا، لا أستطيع أن أشتريه كاملاً ولا مرة واحدة، وملايسي، ماذا أقول لك، أرى اليهودات الحقيقيين وهم ينزلون من سياراتهم التي لا يجرها حمار، يتعطرون ويتبخثرون وفي أيديهم هوانم حقيقيات، عندئذ يا حماري لا أشعر بالفقر، ولكن أشعر بأنني غير موحود على خريطة الدنيا، أو حثث في زمن غير مناسب لوجودي.

هذه الرجاجة، انتظر قليلا، سأخرجها لك من سيالتي، هه، هذه هي، سأدلقها كلها في القدرة الكبيرة، وعندئذ؛ سيأكلون الفول ويامون، ثم لا يستطيعون إلا على صوت الملكين. ثم أسرح بعرتي في مكان آخر أقد قذارة، ولكن يا حماري هناك شيء يجعلني لا أجرو على هذه الفعلة، أنني لا أضمن ربائن غير هؤلاء، وهذا هو مربط الفرس، سامحني على هذا التشبيه، فربائي هم الدين يملأون حيوي بحيياتهم منذ الفجر وحتى أذان العصر، وهم أيضًا قد تعودوا على فولي الذي أبيعهم إياه، فانا لا أضمن أن تعجب محتويات قدرتي أناشأ آخرين في حي راقٍ جديد، وعندئذ، يوم لا ينفع ندم؛ من أين سأتي بزبائني مرة أخرى بعد أن يواريهم التراب؟

لذلك أب أحد رأيك، أنت الآن مستشاري يا حماري، أعلم أنك لا تهتم سوى بفس رأسك في كيس التبن أو مضغ جزم البرسيم، لكنك يمكن أن تهز رأسك لو أعجبتك الفكرة، أه، أنت تهز رأسك باستمرار، وكأن كل الأفكار التي في الدنيا تعجبك، لو أنك تسمعني لأن فاحتمال أن تسحر من كلماتي، تقول في نفسك. «وهل يستشير الحمار إلا حمارة؟» انتظر قليلا، سأقول لك، هؤلاء البشر الذين تراهم يعيبك الواسعتين وتسمعهم بأذنيك العارعتين، كلهم تقريباً،

وكأنهم انتهزوا الفرصة لوجودهم معي في عالم واحد، انتهزوها لكي يكونوا باوصاعة التي تراها، فلو رأي أحدهم جائعاً لن يقدم لي رغيفاً، وأنا أبيع القول على عربتي التي تجرها وأمشي بجوارك حتى تنورم قدماي، فيظهرون أمامك طيبين لأنهم يشترون مني ويفعلوني، لكن هؤلاء الناس أنفسهم لو رأوك وحدك فسوف يسرقوك ويبيعوك، وربما ذبحوك يا حماري وأكلوا من لحمك، وسيبيعوا عربتي الخشبية حاملة القدرة ويفككوها. لذلك، فأنا أكن كل الكره لهم جميعاً، أبيعهم فولي لكن لا طاقة لي برؤية ملامحهم ولا شم رائحتهم، أنا لا أريد التخلص منهم لشر في نفسي، فأنا أعرف رباً حق المعرفة وأصلي الجمعة في المسجد، هم الدين لا يعرفون، هم الذين لا يعطون المحتاج، ويسبب غضبي من فضلهم عليّ فكرتُ في أن أصح السُّم في القدرة، ثم أمسك بصفاري المعلقة في عنقي، أصمر بها وأنادي.

«فووول»..

ما رايتك فيما قلت؟ أنا لا أحتبك، السم وقد قمت بشرائه، الربائن و سأختار منهم من لن يطلع عليه نهار الغد، لا أدري كيف بنت بداخلي هذه الفكرة الجهنمية، من العادي ألا يعرف الإنسان كيف بنت في رأسه فكرة، أضف إلى ذلك أنني رجل عجوز، فالأيام تطعم السن كل يوم، مع مرور الوقت يصبح لها مخالف وأنياب، وأنا، بعد أن تخطيت السبعين، اتسع حوضي وتفاقم أمراض، بعد أن تقوست قدماي بسبب اعوجاج عمودي الفقري، لم أعد أبقي على شيء، فأريد أن أسلي نفسي بمناظر جديدة قبل أن أموت، لذلك، اخترت أن أسلي نفسي برؤية أئناس وهي تموت، أتعرف يا حماري أنها متعة لا تضاهيها متعة، أن نرى شخصاً من نفس جنسك وهو

يودع الحياة، ليس هذا بالضبط، لكن المتعة القصوى أو تكون علي  
عِصم بأنه سيموت الآن، آه، أهيون، والله أقيون يا حماري، اشخص  
من هؤلاء يتشجع، يترنج، ثم، خلاص نهائي لا رجعة فيه، متعة  
لا أعرف لها مصدرًا، لا أحد بديلاً عن السعي وراءها وتفيد ما  
يوصلني إليها في أسرع وقت، الأفكار تدور في رأسي، والصفارة الآن  
بين شفتي، أنفخ فيها:

«فووول»..

هه، أتعرف؟ وأنا أشتري هذه الزحاجة كدست وفنت للبائع  
أنها لستران، تحيل؟ فاصلت في الثمن، بالضبط كما أفصل في شراء  
البرسيم لك أو في سعر طهو القدرة عند صاحب الموقد، أفصل في  
لموت كأي شيء عادي من أمور الحياة

لن يبقى إلا أن أضع في قدرتي هذا السم وأدوره بمعرفتي الطويلة،  
ثم أنتظر صاحب الحظ السيئ الذي سيفتح الشراء من القدرة  
لقد أتعبني السير وتورمت قدمي. ثواني قليلة يا حماري، سأنتظر  
الزبون الأول، عيل كان أم ناشأ أم هنم، هو وبصيه، من تدفع  
به قدمه إلى هنا هو صاحب الافتتاح الكبير، أوكازيون، سأبيعه  
مجاناً دون مقابل، المقابل المعتبر أن أرى الزبون وهو يأكد الفون،  
يتلوى ويصفر وجهه، ثم يقع على بوره فتتحطم أسنانه نصف  
المنطقفة ستتعير منامتهم في الغد، أريد أن أعطيهم تذكرة نقيهم  
شورر الدنيا، فيتركونها سريعاً، وأتفرج عليهم وهم يغدرون، وهم  
يُحلّقون بأرواحهم ويتركون للأرض نقاياهم.

لكن شيئاً ما لا أعرفه معني من وضع السم في القدرة، لا أعرف  
لماذا تراجعن؟ لم أستطع التوصل لوصف ذلك الإحساس الذي سري  
في عروقي كالبيج، قوة غامضة وإرادة مبهمة، يمتلكها كبر مني

ومن زبائني وقدرتي والكرة الأرضية كلها، منعني، فألقيت رجاجة  
السم الصغيرة بطول دراعي، اقترب كلب يشمشم فيها، جريت  
تجاهه وضربته بطوبة كي يتعد ولا يقرصها بأسده، انحيث عليها  
وانتفضتها، قذفت بها فسقطت في بالوعة مفتوحة وغاصت، المياه  
الغامقة لم تُبَيِّ الزجاجة، وقفت أمامها وأنا لا أستطيع عمل شيء  
للراصير المسكينة

عُدْتُ إلى قدرتي بعد أن تخلصت من الزجاجة، لا أعرف يا حماري  
من أمر أنسي تلك المهمة الكبيرة لتدوير المغرفة في قدرتي، دورتها  
بكل قوتي، وأحدث أمز جيسي بما فيه من نفود لأستفيق من ذلك  
البيج الغريب الذي استعود على عقلي، لا أريدك أن تتذكر من  
كلما في حرقًا يا حماري.

أمسكت صمارتي المعلقة في رقبتني، نفخت فيها بنفسي طويل  
ممطوط ومتقطع، كنت مسوط الروح، منتشيًا، لا أعرف ماذا  
أبدي الآن بصوت أعلى من المعتاد...

«قوووول»

مریم ومی

البيت بيت مريم، مي طرقت الباب، وفتحت مريم، دخلت مي،  
ونظرت، تأملت وبهت:

«أين الخروف؟».

قالت مي وعينها على الحمام:

«بالأمس ذهبناه».

مريم في «كي جي تو»، ومي داخله «كي جي وان» بعد شهر.  
قفزتا فوق الأتريه، ونحت الكنه، نطت مريم على فرو أبيض  
مفروش أمام المطبخ:

«هذا ما تبقى من خروف العيد».

سالت مي وعينها معلقة على الفرو وجرمة مريم أم كعب  
عريض:

«وسال الدم؟».

«كثيراً جداً».

تنظر مي لمريم نظرة توقيف، فهي كبيرة وفي «كي جي تو»،  
وحافظة لعاية جمدول ثلاثة، ومريم تعاملها بألفة الكبار وعدم  
صبرهم. رفعت مي الفرو ووضعت على كتفها الصغيرتين وصاحت:  
«ماء.. ماء».

قفرت مريم إلى المطبخ وسحبت الحبل الذي كان يربط الخروف،  
ذاثرت لا ترال معقودة وتكفي رأساً، وقطعة معدودة بطول متر،  
مي تمشي على أربع، وتردد بصوت ضعيف مخفوق.

«ماء.. ماء».

أطاحت مريم بالحبل في الهواء، فلفّ دائريًا وقبضت أصابعها عليه:

«تلعبني معي يا مي؟».

نظهر عينا مي من تحت الوبر الأبيض، تقول وفمها مدفون في الفرو الصوف:

«العب؟».

دون تفكير طويل قالت مريم:

«لعبة الحروف».

سقط الفرو عن كتفي مي ورفعه ثانية، بالكاد وصل صوتها الخافت لمريم:

«لا أعرفها. لكي أريد أن أعبها معك».

تقرب مريم من مي، ثقف مباشرة أمامها، رأس مي منكسر، ويداهما وقدماهما تتحرك ببطء، تلف في محيط سجادة صغيرة حمراء، كان اقترابها من حافة السجادة كأنها هاوية بشكل م، علقت مريم الحبل في عنق مي، وبقبضة عفيفة سحنته مي تبتسم بعد كل مأمأة، وكأنها تستعطف جمهورها الوحيد لكي يُثني على تقليدها للحروف، ومريم معجبة بالانتسامة الصغيرة، فبعد أن كانت تمترس قدميها في الأرض وتحب الحبل الكتان المفتول الذي في يدها، أعطت ظهرها لمي ورفعت الحبل على كتفها، أسرع في جز الحروف المفترص خلفها، تحولت ابتسامة مي بعد المأمأة لصحكة، مي تلمس ثم تضحك، وتقطع صحتكها شرقة كالزعطة، ثم تكمل الضحكة، وتكمل اللعبة «ماء. ماء.»

في اندابة، كانت شراشيب الفرو تحمي عنق مي، لكن بعد أن

تزعجهم، ثم انزلق على ظهرها بسبب الحركة المستمرة ممكس  
الحبل من عنقها الصغير. استطاعت مي أن تحافظ على إصماع  
المأمة، بعد بصع خطوات يحرج صوت معمم، بسبب الحركة قبل  
قوته، وحدته، تضطرب صريرات قلبها، ويرداد الشهيق سرعة «ماء  
ماء».

بدأت مي تضيق باللعبة، في البداية، تحببت هيئتها في الحروف،  
صوته وبراءته، لكن الحبل يحز الآن في رقبتها الضعيفة، ويحك  
حسنة طالعة في دقنها الناعم، حاولت رفع الحبل، صعط العفدة  
كان أقوى، عزم الجر يعالها، تحاول مرة أخرى، ولا تستطيع  
الارتكار على ثلاث في التوقيت نفسه الذي بدأت فيه مي تشعر  
بملل من اللعبة، كانت الهمة قد غلكت من مريم، دب فيها  
نشاط أقرب للحمى خفيفة، أسرع في حر الحبل ولم تلتزم محيط  
السجادة الحمراء، تعشجحت بالمأمة، ثم انقطعت، ومريم تنس  
بالحبل، تركض، تريد أن تصع حدا عينا للعبة، لا تريدها بهايه  
تقليدية، تنس، تركض «ماء ماء ماء» ومي تريد أن تنادي مريم،  
إحسبها بالخطر توقف عندما اهترت الأشياء من حولها وتحول  
كل ما يحيط بها لشكل أقرب لحلم يدا، أو يصع أوراها، أو يحرف  
عن الخط المرسوم ويذمج مع أحلام أخرى.

لم فشلت محاولات مي في مواكبة السرعة وثبتت خلف صديقتها،  
هذه الآلة التي فسدت فجأة، أو اشتد عليها التيار بلا مقدمات،  
كانت تشب على قدميها وتقفز، هذه الحركة بالذات أثارت في  
مريم شيئا مبهما، أغرتها، ربما ظنت أن مي متجاوزة مع اللعبة  
بشكل ما، فعبرت عن الإعجاب بهذه القفزات وقع العرو بهائيل  
عن ظهر مي وذابت عليه مرتين أثناء اشتدادها خيف الحبل



أخذت الخمى إيقاعاً أعلى، جرّت مريم الحبل بسرعة دور  
استراحة. مي تشد الحبل وهور أن يرتخي تجده مريم مرة أخرى  
بقسوة. اسطحت مي على الأرض، تمددت وارتعشت قدمها، نام  
شعرها الأصفر فوق الفرو الأبيض الواقع بجوارها. لم تنتبه مريم  
لسوم مي إلا عندما أصبح الحبل ثقيلًا، وبعد أن كانت تجر الحبل  
أصبحت تجرّ مي. رمت الحبل واقتربت منها، ملست على شعرها،  
أبعدت الحبل عن أديها والحسنة، دنت منها وقالت  
«لم تنته اللعبة يا مي. سيأتي أخي من المدرسة ويعمر دور  
الجزائر».

عمي وأبي

وقف عمي يحدث أبي:

«عاوز الحبل».

كانت هناك جاموسة قريبة منّا، تقف حرة بلا قيد، بحث أبي عن طلب أخيه الكبير، في البداية؛ كان يبحث بلا مبالاة كأبي إسمان يبحث عن شيء عادي، وعندما وجد عمي مصمماً على إحصار الحسد حالا، في هذا التوقيت بالذات، بحث مرة أخرى بشكل أكثر اهتماماً، لكنه أيضاً لم يجده، بصرخ عمي لذي أصبح كأنه يصف بعض شعيرات مخه مع صوته:

«قلت عاوز الحبل».

ويقول أبي الذي بدت ملامحه تأخذ طريقها التدريجي للتوتر

«حاضر. اهدأ. سأحضره حالا».

ويهم أبي، يصول ويدرع الدار كله ناحتاً عن طلب عمي لذي لم يعد يرى في الدنيا كلها غيره، الحبل، يبحث فوق نلال لدره الذئبة وتحت الكنب وفوق السطح، وعندما يفشل للمرة الثالثة يسأل أمي، ولا تحيه، تفضل أن تساعدني بشكل عملي وتبحث معه عن طلب أخيه، لكنها أيضاً لا تجده، فيحرجان لعمي لحاسر على المصطبة، وعندما يلمح أيديهما خاوية فلا أحد يقوم من مكانه ويضع يديه حول خصره:

«أما قلت عاوز الحبل حالا يعني عاوز الحبل حالا. تصرفوا»

وتصبح الدار خالية بعد نشاط في أقل من دقيقة، أمي وأبي وأخي الأكبر، سحب أبي في يده أحد الخيران ليبحث معه، وبعد أكثر من ساعتين من البحث المرهق خشي أبي أن يواجه عمي بالحقيقة، أن

الحبل فص ملح وداب، اقترب منه وحده أولاً ليمتص غصيه:  
«هر يمكن أن تعطيني الفرصة حتى العد. العد فقط على أقصى  
تقدير».

ويرفص عمي المهلة، يكظم غيطه ويصر أسانه، كان كانه  
سيأكلنا مقابل هذا الحبل المختبئ في مكان مجهول، بتعد أبي  
عن عمي، ثم دخل لأمي واقترح عليها بدلاً ممتازاً لحل هذه  
المشكلة، اقتنعت أمي بالفكرة ولم تتردد في البدء بتنفيذها، حاءت  
بعض الملابس القديمة ومزقتها إلى شرائط رفيعة في عرض إصبع، ثم  
قننت شرائط كل ثلاث مع بعضها، أحده أبي منها الصدر وصنع  
منها صغيرة واحدة كبيرة ومثينة، ثم خرج بها ملفوفة على ذراعه،  
وقال لعمي في أبهة:

«حد، هذا حب أحسن من حنك»

نار عمي ثورة عارمة، أمسك بحبل الضفائر وألقى به على  
الأرض، سب الشتر والطير والحجر، أخذ يحوب المسافة الصغيرة  
بين المصطبة وباب الدار دهاباً وإياتاً مرات عدة، عيه نُخرج شرراً  
يتطاير، وذراعاه حلف ظهره، كفاه ثفركان، ورأسه منحني للأمام  
كجمل ركه الخزن، خُلعت فردة مداسه فاطاح دالأخرى بعيداً في  
حركة غضب عارمة، احتفى أبي من أمامه ودخل لأمي مرة أخرى:  
«لا يعجه شيء»، ولا يريد إلا الحبل الذي في رأسه.

تجلس أمي وتسند رأسها على كفها، يهدمدن أحي الأكبر  
فيجلس بحوارها، ويقف أبي عند فتحة الباب يدبر أمره  
قترب من أبي، خرج صوتي هادئاً، كانه أتى من مكان آخر غير  
متوتر:

«لماذا لا تقولوا له إن الحبل ضاع؟»

تتبعه أمي، ويحملق أخي، وينظر أبي في عيني مباشرة بفتر من  
مجلس أمي وأخي، لكنه لا يوجه كلماته إلى أحد بعيد  
«فعلًا. لماذا نحاول إرضاءه على حساب الحقيقة، لماذا لا نقول  
له إن الحبل قد ضاع؟»

تقف أمي:

«فعلًا الحبل ضاع».

ويتبعهما أبي إلى الخارج. أسمع صوته مُحدث نفسه وهو في طريقه  
إلى المصطفبة التي يحس عليها عمي:  
«صحيح. لقد ضاع الحبل».



انتهرت جميع الشخصيات غاب المؤلف وخرجت مر أوراقها،  
أحدث معها الأفعال وهي خارجة، والأسماء أيضاً، تركت الكتاب  
يعج بحروف العطف وحروف الجر، انتشر حرف الواو بطول  
الصفحات، وقف بين شينين واطمان لمكانه، ثم نُثِرَتْ علامات الترقيم  
حول الحروف، جلست الشخصيات جميعها بالخارج يتفرجون على  
هذا الشكل المتقطع غير المفهوم « و، على، من، و، ثم، إلى، في، إن،  
و... و... ».

أصبحت الصفحات كلها على هذا الشكل العجيب، ولما فرغت  
من مضمونها بذلك الهروب الكبير؛ وجدت بعض المتعاطفين  
ممن حرموا عليها، فعاولت بعض الشخصيات الارتداد والعودة  
للأوراق مرة أخرى، لكن شخصية البطل كانت أقوى منهم جميع،  
فأقنع معه لشخصيات المساعدة، ولكن بقيت الشخصيات الثانوية  
والهامشية تصنع بعض الصحيح والاعتراض.

انتصب عود البطل ولف حول الكتاب مرتين. نظر إلى الأوراق  
الخالية من المضمون باردراء وتعال، أخذ يُدَوِّرُ المسألة في رأسه،  
وقفت الشخصيات الورقية بجوار البطل، لحظة الخروج كانوا  
كلهم في حجم واحد تقريبا، يتحركون ببطء وبلا أعاد، لكن  
البطل وحده صبح لنفسه بُعدا جديدا بالهيلة، وقف عكس ضوء  
الأباجورة الثابتة على مكتب المؤلف، فانتفخ جسده وأصبح مثل  
كرة كبيرة من الظل، كان شكله مهيبا وحجمه أكبر منه في الحقيقة،  
ظل يكلم الشخصيات صاحبة الأدوار الصغيرة عن بطولاته عندما  
كان راقدا في الكتب، وأنه اعترض على تواجدته فوق هذه الأوراق  
بسبب مهاراته وقونه غير المحدودة

صدّقته بعض الشخصيات المساعدة، ولكن الثانويين والهامشيين اعترضوا، لم يجد البطل بديلاً يقنعهم به إلا الرهبة، فاستقطب الشخصيات التي اقتنعت ببطولته وأعطاه أداواراً مساعدة، لم يعط للشخصيات الهامشية مثلهم أداواراً واضحة، فظل الهامشيون على الصالة نفسها، لكنهم اعترضوا وعملوا جلبلة وغاغة، وكان لابد من تهدئتهم. فقهرت المكرة إلى ذهن البطل ونقّدها دون تردد.

قال لهم إنه سيبلغ المؤلف عن تمردهم وعدم دعمهم لبطولته الأسطورية، في البداية، لم يكونوا متأكدين من وجود هذا المؤلف في لحقيقته، إذ إنهم قصوا الشطر الأكبر من حياتهم بين الأوراق يؤدون أداواراً هامشية لا يراها أحد، فانهز البطل هذه الفرصة وأخذ يبالغ لهم في وصف المؤلف، ويتلو على مسامعهم أغنية من نغمه واحدة، معادها أنه يمتلك مصيرهم في يده، فيمكن أن يعيدهم صاعرين إلى الكتاب الضيق لو أراد ذلك، ولن يتمكنوا من الخروج مرة أخرى، سيُدفنون بين حروف الجر وعلامات الترقيم كما كانوا منذ أن خُلِقوا، ليس هذا فحسب، بل سيحاسبهم بأثر رجعي على كل ما فعلوه.

يقنعهم البطل بأن المؤلف خلق لهم أبطالاً يجب أن يسمعوا كلامهم وينصاعوا دون تردد في تنفيذ ما يطلبون.

انقسمت الشخصيات الثانوية على نفسها، وكذلك الشخصيات الهامشية التي لم تكد تظهر في الكتاب إلا مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، ولم يعطها المؤلف اسمًا إمعانًا في تهيمش مُتعمد، فعنهم من أثر السلامة وقرر إرضاء المؤلف في صورة إرضاء البطل، ومنهم من اعترض على هذا الكلام وقرر عدم إرضاء المؤلف أو إرضاء البطل، وبدأت الخيوط تتعقد ككرة الصوف أمام البطل، لكنه لم يغلب في



## اختراع حيلة جديدة.

جمع أولاً شخصياته المساعدة، منحهم ماصب كثيرة لكسر شوكتهم وضمان ولائهم، ثم أصبحوا هم وكلاء ما يريده البطل، هو يقول لهم وهم يقولون للمهمشين، تفتت اعتراضات الشخصيات التي لم تكن تحم حتى وقت قريب بأن يصبح لها رأي، وسو المؤلف والبطل ولم يعد يشعلهم إلا الشخصيات المساعدة

لكن الشخصيات المساعدة ملئت من ترديد كلمات البطل على مسامع المهمشين، فحاروا بعض الشخصيات الثانوية واحتمعوا بهم في سرية بعيداً عن عيون البطل، قالوا لهم ما يريده تماماً، لكن أفهموهم أن هذا هو رأيهم هم، وأن البطل لا علاقه له بهذا الرأي، وقتسع الثانويون بالكلام لأن الشخصيات المساعدة وعدتهم بعض الامتيازات، وأصبحت العقبة متمثلة في المهمشين فقط، ولكهم كثر، أكثر من البطل والشخصيات المساعدة والشخصيات الثانوية بأعداد مضاعفة، وجاءت الحيلة للثانويين ولم يترددوا في تنفيذها

اجتمعوا سرّاً بعض الشخصيات المهمشة المحتررة بعناية، ووعدوهم بخلق ألقاب عليهم وحضهم باعتيازات محدودة، وذلك نظير بعض الخدمات البسيطة التي سيقدمونها للبطل مثل

أولاً إقناع باقي المهمشين بوجود مؤلف هم لم يروه ولا مرة واحدة، ثانياً، يقررون بأسطورية البطل الأوحـد الذي لا يأتيه الباطل أبداً، ثالثاً، وهذا هو الأهم، أن يقنعوا أهلهم من الشخصيات الهامشية بضرورة الصبر على كل المأسى كي تستمر الحياة، فدائماً القيامة قريبة، والحراب على الأبواب، سينضب الزرع وتتوقف السماء عن إرسال جندها، والبطل يقيهم وأهلهم دائماً شر الحرب والدمار.

طلبت الحال على هذه الوثيرة لمدة طويلة، جيبين على الأقل، المهمشون انحتارون يُهدّثون أحوال المهمشين من أهلهم دون أن يقدموا لهم حلولاً حقيقية، والمؤلف غائب عن كتابه الذي ألفه منذ مدة لا يعلمها أحد، والبطل يجلس على عرشه مزهوًا، تبعده مسافة ملحوظة عن الطبقات الأدنى، يعيش في عالم مصطنع وخيالي، لكن جيل المهمشين الذي ترك الكتاب في أول الزمان ضربه العجز، وأصبح الكبار منهم لا يقدمون أي حكمة، بل إن رؤوسهم كانت حاوية وعقولهم الواهنة تدق الطبل لصاحب المقام الجديد الذي سيحس على كرسي البطل، وورث رؤسهم ذرية لا يعرفون شيئًا عن الهروب الكبير من صفحات الكتاب، فظلوا يصرون البطل ولا يعترفون ببطولته رغم الضغوط الشديدة عليهم كي ينصاعوا، ثم توجهوا بالنوم إلى المؤلف داته، وشكّوا في وجوده من الأساس، فامتنعوا عن نسب الكتاب إليه، وازدروا كل من كان يخاطبه، وانقلبوا على ميراث آبائهم وأجدادهم، ظلوا على هذه الوثيرة من تقلبات الأنفس والشك حتى وصل أمر تمردهم للبطل الجديد، وكان عليه أن يتصرف معهم بشكل مختلف، وتُصرف.

في البداية، بحث عن الكتاب الذي هرب منه جدّه في قديم الزمان، وفتح أمامهم وأقسم عليه أنه يعمل من أجل مصلحتهم، ولما رأت الذرية الجديدة هذا الكتاب العجيب قالوا إن هناك بعض أشياء مهمة تنقصه، فما معنى مثل هذه الرموز، من ذا الذي يفهم حروفًا مبهمّة دون أسماء أو أفعال؟

«و، على، من، و، ثم، إلى، في، إن، و... و...».

كانوا ينظرون إلى الحروف ولا يفهمون شيئًا، ينتهز البطل هذه الحالة من عدم الفهم، ويقوم بتفسيراته الخاصة للكتاب، منهم من

يُصَدِّقُ مَا فَسَّرَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِضُ، مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَشْكُ فِي رِجَاحَةِ  
عَقْلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ مَعْجِزَةً مَبْهُمَةً، عِنْدَمَا بَدَأَتْ بِوَادِرِ انْقِصَامِ  
اِتِّتَظَمِ تَنْفَسِ الْبَاطِلِ وَعِبَادِ يَدِقِ بَقْبِصَتِيهِ عَلَى صَدْرِهِ فِي زَهْوٍ، كَرٍ  
قَبِيلًا مَا يَصُرُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ، يَنْقِي بَعْضُ  
الْأَوَامِرِ السَّرِيعَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ الثَّانَوِيَّةِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ.

لَكِنْ هُنَاكَ بَعْضُ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَهْمُشَةِ اِكْتَشَفَتْ اللَّعْبَةَ، فَحَاوَلُوا  
إِيصَالَ رَأْيِهِمْ فِيهَا حَدَثَ لَأَكْبَرَ عَدَدٍ مِمَّنْ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا  
حَلَالُ هَذِهِ الْاجْتِمَاعَاتِ السَّرِيعَةِ إِنْ الْبَاطِلُ لَيْسَ بَاطِلًا، وَأَنْبَأُوهُمْ  
بَأَنَّهُ مَجْرَدُ شَخْصِيَّةٍ عَادِيَّةٍ حَذًا، مُسَاعِدَةٌ أَوْ ثَانَوِيَّةٌ، وَرَعَا هَامِشِيَّةً  
مِثْلَهُمْ، وَأَنَّ الْمَوْلُفَ زَسَمَهُ عَلَى الْوَرَقِ فِي دَوْرٍ صَغِيرٍ حَذًا، وَكَانَ يُمْكِنُ  
أَنْ يَقُولَ جُمْلَةً وَاحِدَةً أَوْ يُلَوِّحَ بِإِشَارَةٍ عَابِرَةٍ، لَكِنَّهُ هُوَ مَنْ نَصَّبَ  
نَفْسَهُ بَطْلًا عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ خَارِقًا وَلَا أُسْطُورِيًّا وَلَا أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ  
مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

اِنْدَسَ بَيْنَهُمْ بَعْضُ أَشْخَاصٍ مِنْهُمْ، مِنَ الْمَهْمُشِينَ أَنْفُسَهُمْ،  
يَتَنَصَّتُونَ عَلَى مَا يُقَالُ مِنْ نَقْدٍ لِلْبَاطِلِ، يَسْتَمْعُونَ لِلْكَلِمَاتِ جَيِّدًا  
وَيُزِيدُونَ عَلَيْهَا مِنْ خِيَالِهِمْ، يَحْفَظُونَ مَلَامِحَ مَنْ قَالَ وَيُتَلَعَّوْنَ  
الشَّخْصِيَّاتِ الْمُسَاعِدَةِ؛ وَالتِّي تَقُومُ بِتَوْصِيلِ مَا يَسْمَعُونَهُ إِلَى الْبَاطِلِ  
لِيَفُوزُوا بِمَغْنَمٍ مَا، وَيَسْعَدُ الْبَاطِلُ لِهَذِهِ الْخَلِيقَةِ الْمَخْلُصَةِ الَّتِي تَعْمَلُ  
مِنْ أَجْلِ رَاحَتِهِ، فَيُعَيِّنُ أَقْدَرَهُمْ عَلَى تَوْصِيلِ الْكَلَامِ رَئِيسًا لِبَاقِيِ  
فَرِيقِهِ، وَيَأْمُرُ شَخْصًا آخَرَ بِأَنْ يَسْنِي حَوْشًا كَبِيرًا لَهُ أَسْوَارَ عَالِيَةٍ،  
فَوْقَهَا لِفَائِثٌ مِثْلُكَ وَأَسْنَةُ جِرَابٍ، وَفِي بَطْنِ الْحَوْشِ يُلْقَوْنَ بِكُلِّ مَنْ  
سُمِعُوا وَهُمْ يَعْتَرِضُونَ عَلَى سَيْرِ الْبَاطِلِ لِأُمُورِ بَاقِيِ الشَّخْصِيَّاتِ  
فِي الْكِتَابِ.

لَمْ تَمَلِ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَهْمُشَةِ مِنَ الْمَحَاوَلَاتِ، أَنْشَأُوا أَمَاكِنَ يَلْتَقُونَ

فيها وينافشون إمكانية عودتهم للكتاب مرة أخرى كما كان  
أجدادهم، وأقنعوهم بأنه إذا عادت جميع الشخصيات إلى الكتاب  
فستعود بعدها الأفعال، ولو عادت الأفعال سيكون ذلك إيذاناً  
بهدم السور العالي الذي صنعه البطل، ولو نجحوا في هدم السور  
ستصبح لديهم إمكانية لرؤية المؤلف نفسه، وعندما يرونه يمكنهم  
أن يسألوه عن البطل، وهل هو خلقه في كتابه شخصية عادية  
مثلهم؛ أم أن له خواص لا تتوفر للناس العاديين؟

لم يجد البطل أمامه حلاً إلا المواجهات الصريحة، فقد فشل  
السور العالي مع الشخصيات المهمشة، وقشلت مهمة المنتصتين  
الذين ينقلون للبطل التمرد والاحتجاجات، لم يعد أمامه إلا القتل  
المباشر ليحتفظ بصورته كبطل.

وبالفعل، بدأت آلة القتل تعمل بأقصى طاقتها، في الوقت  
الذي كان هناك قلة من المهمشين ينخرون جدران السور العالي،  
يخرج بعض المحبوسين وهم لا يستوعبون حريتهم، تنزعج أعينهم  
من رؤية الشمس، وتضطرب عقولهم عندما يرون أشخاصاً جددًا  
بالخارج، يهرب البطل منهم ليعود إلى الكتاب مرة أخرى، لكنه لا  
يستطيع، تحاول الشخصيات المساعدة والثانوية والهامشية أن تختار  
منهم بطلاً جديداً، وهُنا يقعون في مأزق، لأنهم لابد أن يعودوا  
إلى الكتاب مرة أخرى، فتعود الأسماء والأفعال إلى جوار حروف  
العطف وحروف الجر وعلامات الترقيم.

لكنهم عندما بحثوا عن الكتاب لم يجدوه، فقد اختفى في اللحظة  
نفسها التي اختفى فيها البطل.

جزيل الشكر لـ

عماد العادلي

أشرف العشماوي

إبراهيم عبد الرحمن

هدى أبوزيد

إبراهيم الجمال

أحمد سعيد

## الفهرس

9	العنكبوت وأحلام جدي
15	الحافه والمسدس
21	عمتي والحمار
29	هي وهو
35	الحجر والقتل
41	أثيرة وروحية
53	البديل والمحتمل
59	رضا وصباح
67	الرجل وطريقة موته العجيبة
81	جدي والدراجة
87	المغفلون والحلاق العجوز
93	الشجرة وما تحتها
99	النطفة وروحها
105	الموت وسباطة الموز
111	الخبينة والليل
117	الولد والبهلوان
123	البائع وخياله
131	مريم وهي
137	عمي وأبي
143	و

# 9

"هذا الرجل يضحك عليك يا جدي، لا تُعطه عمي. ألم تقل بنفسها أنها لا يمتيها العيش معه أبدا؟"

ويشول جدي بعلة تجمع بين قوة عظيمة وضعف شديد:  
"انظر إلى عمك بالداخل يا مُعقل."

وأنسل إلى الداخل، فأراها واقفة أمام مرآة مكسورة، تُخرج من تحت الإشارات خضيلة شعر، تُؤججها بثلاث يَسن طويلة سوداء، وتذكّ خدّها بورقة دخان حمراء، تُرج المكحلة ويُقيظ عليها عينها ثم تسحبها بعنف من بين خفيّتها. وأعود إلى جدي، وجهي يُخرج صهيدا، ويعود رأسي يشبه فخّارة تتفحم في فرن، ويتألّق:

"ها، ماذا رأيت؟"

وأقول:

"عمي قلبك الأدب."

عمره العادل، روائي وفنان مصري، تُخرج من قسم الاجتماع بجامعة عين شمس وباحث في علم اجتماع الأدب، صدر له العديد من الأعمال، منها المجموعة القصصية "حكاية يوسف إدريس" سنة 2012 والتي حصلت جائزة ساويرس في القصة القصيرة فرع كبار الأدباء، ورواية "الزيارة" سنة 2014 والتي حصل من خلالها على جائزة الدولة للتشجيع سنة 2016، ومن أعماله أيضا رواية "أغواء يوسف" سنة 2011 ورواية "كتالوج شندلر" سنة 2013 ورواية "رحلة العائلة عبر القديسة" سنة 2015 والمجموعة القصصية "عالم فرانشي" سنة 2016

